أخطر مما يبدو

بقلم/ نوران العدوي

عنوان الكتاب : أخطر مما يبدو

اسم المؤلف : نوران العدوي

تدقيق لغوي : حنان خطاب

تصميم الغلاف : مصطفي نصر

الطبعه الاولي ٢٠٢٥ / ٢٠٢٦

رقم الايداع : ٢٠٢٥/٣١٢٩٨

الترقيم الدولي : ٣ – ٤٣ – ٨٣٢٩ – ٦٣٣ – ٩٧٨

مؤسسة القاهرة اليوم للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظه ويمنع طبع أوتصوير أوتخزين أي جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابي من الناشر.

الإهداء

إلي روح أبي وأمي وأخي الغاليين سأظل أهدى لكم ما أكتب حتي ألقاكم ،كنت أتمني وجودكم معي...

إلي كل من كان بجانبي إلي كل من ساعدني وأمنّ بي إلي كل كلمه تشجيع سمعتها منكم أشكركم من كل قلبي على محبتكم التي غمرتني...

إلي تلك الأرواح التائهة التي حملت أثقالها بصمت...

إلي من سافروا كثيراً داخل أنفسهم ولم يجدوا بعد طريق العودة...

إلي الأشخاص الذين أرهقتهم الأسئلة ، وأتعبهم البحث...

إلي كل من شعر يوماً أن العالم يدور من حوله بينما هو ثابت مكانه ..

هذا الكتاب لكم

المقدمة

" الحياة ليست إلا قفصًا من الألم نُسجَن فيه منذ اللحظة الأولى لصراخنا في المهد، نحمل على أكتافنا عبءَ البحث عن معنى، لكن كلما اقتربنا من سراب الإجابة، ازددنا عطشًا.

إذ إن الأسئلة تلد أسئلة، والمعنى يهرب من بين أيدينا كحفنةِ رمال.

وإن تساءلتَ عن الحب والإيمان والفن، فهي ليست إلا أوهامًا لطيفة ابتَدعناها لنخفف من قسوة الحقيقة "

محمود مرعي

القصة الاولي

أنا التي لا أعرفها

بسم الله الرحمن الرحيم

في ذلك الصباح، لم تكن السماء الزرقاء الصافية فوق مبنى المستشفى، ولا المساحات الخضراء الشاسعة التي تلفّه، كافية لتبديد الثقل الجاثم على روح الدكتورة سارة. فاليوم لم تكن تتعامل مع مجرد مريض آخر، بل مع ملف نور الذي وُصف بأنه يحوي قصة لم تستطع الكلمات احتواءها.

كان الملف الذي انتقل إليها للتو من الدكتور وحيد يهمس بأسئلة بلا إجابات، وبه أجزاء كثيرة غير مفهومة، أجزاء ناقصة، ولكنها عندما جمعتها شعرت بالضياع أكثر. كل سطر جديد يحمل حكاية صادمة صدمت زملاءها من قبل. تنهدت سارة بعمق، وتناولت الملف، وعيناها ترصدان تاريخًا من المعاناة...

مع كل ملف جديد، كانت سارة تشعر بثقل القصص يتراكم على روحها. غالبًا ما كانت تضطر للنهوض من مكتبها لتخطو خطوات في زيارة خاطفة إلى شرفة المستشفى، تتنفس عميقًا، وتغمض عينيها لدقائق، وتدفع عن نفسها شبح الانجراف خوفًا من أن تنهار هي الأخرى تحت وطأة هذه المعاناة، فتصبح جزءًا من المرضى الذين تحاول شفاءهم.

تخـرج إلــى المبنــى لتتفقـد المرضــى. تنظــر مــن خلــف الزجــاج وتــرى نــور جالســة كعادتهـا تنظـر إلـى الفـراغ وهـي مبتسـمة وتحـدث أشخاصًـا غيـر موجـودين. تنتبـه نـور إلــى الـدكتورة سـارة، فتنظـر إليهـا بحـب وهـي تهمـس بصـوت لا يكـاد يُسـمع، وتشـير إلى سارة للانضمام إليها؛ تتجه إليها سارة وهي تبتسم وتوجه لنور التحية:

– صباح الخير يا نور، عاملة إيه دلوقتي ؟

تتمتم نور بكلمات غير مفهومة وبصوت غير مسموع كعادتها.

تقول سارة : أنتِ بتتكلمي مع مين يا نور؟

تعيد نور نفس الهمس غير المفهوم، الذي تعودت عليه سارة.

تهز سارة رأسها وتودّع نور مغادرة.

تفـتح بـاب شـقتها بعـد يـوم طويـل ومرهـق، خطواتهـا متثاقلـة، وجههـا الشـاحب يكسـوه التعب، وعيناها تحاولان التماسك بعد ساعات من العمل والتركيز المتواصل.

تنفسـت بعمـق كمـن خـرج لتـوّه مـن معركـة. اسـتقبلها صـمت المكـان بحـرارة افتقـدتها طوال اليوم.

اتجهـت بـبطء نحـو غرفـة الجلـوس، وابتسـامة خافتـة ارتسـمت علـى وجههـا حـين رأت فنجان القهوة الذي تركته صباحًا كما هو، كأنه ينتظر عودتها.

يدخل زوجها الدكتور صادق، طبيب الأسنان، بخطواته المعتادة التي تجمع بين الثقة وخفة ظل الرفيق... يلوّح لها من بعيد كمن يعلن عودته، ويرفع حاجبيه مازحًا وهو يقول : بعد إذنك يا سارة، أنا همدّد على الكنبة وتيجي تعمليلي جلسة من بتوعك غير مدفوعة الأجر.

تبتسم سارة ابتسامة باهتة لم تبلغ عينيها، وهي تخرج من المطبخ وتمسح يديها في منشفة قطنية.

يقترب منها وهو يقبلها ويقول : إيه قلبة الوش دي؟ كل ده علشان قلتلك مش دافع؟ خلاص ياستي، أنا حبايبي كتير... هروح لحد غريب.

ترتمي سارة في حضنه وتقول : آه... وخدني معاك أنا كمان، أنا اللي محتاجة بجد.

يقول صادق : بعد الشر عنك، مالِك بس يا روحي؟

ترد سارة بارتباك : تعب يوم طويل قوي.

يقول صادق : طيب إيه رأيك تاخدي إجازة ونسيب البنات عند مامتِك وتيجي معايا المؤتمر ؟ تغيّري جو الكام يوم دول وتفصّلي شوية من الشغل.

سارة : لا... ده دلوقتي مستحيل. أنا مستلمة حالات دكتور وحيد بقالي شهرين بعد ما سافر؛ مينفعش آخد إجازة خالص، خصوصًا إن حالة نور اللي كنت حكيتلك عنها ظهر فيها حاجات جديدة لسه عايزة أعرضها على دكتور نادر.

صادق ساخرًا : طب وِاشمعنا دكتور نادر؟ ما إحنا دكاترة برضه!

سارة : أهو ده اللي باخده منك هزار وتريقة بس... يلا اغسل إيدك وغير هدومك علشان نتغدى، وقول للبنات يلا الأكل جاهز.

على الغداء لم تتحدث سارة... كانت شاردة، من فترة لأخرى تنظر إلى بناتها. جميعهن شعرن بهالة الحزن التي تحيط بها، لكنهن لا يعرفن سببها.

أدخلت البنات إلى حجرتهم حتى يناموا، قبلتهم وخرجت إلى حجرتها.

نظر إليها صادق نظرة لوم وهو يقول : أنتِ ليه عايزاني أبقى قلقان عليكي وأنا مسافر؟ أنتِ شكلك مش طبيعي... فيكِ إيه؟

سارة : والله زي ما قلتلك بالضبط : ضغط شغل وإرهاق، وحاسة إني مقصّرة شوية في حق البنات. يعني مبقعدش معاهم كتير. خايفة الأيام تجري بيا وبيهم وأنا مشغولة عنهم. وموضوع نور ده مخلّيني بفكر كتير قوي.

صادق : بصي يا سارة... أنتِ بجد بتعملي كل اللي عليكِ وزيادة مع البنات ومعايا وفي البيت وفي الشغل كمان، فمتحمّليش نفسك ذنب إنك مقصّرة؛

بـالعكس... أنـتِ لـو مقصّـرة يبقـى مـع نفسـك علشـان بتحمّليهـا فـوق طاقتهـا؛ وموضـوع نـور ده واخـد حيّـز كبيـر قـوي مـن تفكيـرك؛ اقعـدي بكـرة مـع دكتـور نـادر، وإن شـاء الله توصـلي لحاجـة معـاه، وأول مـا أرجـع... كـده كـده هخطفِـك يـومين لوحـدِنا مـن غيـر نقاش.

فـي صـباح اليـوم التـالي، كانـت سـارة قـد اسـتيقظت قبـل موعـدها لأنهـا لـم تسـتطع النـوم مـن كثـرة التفكيـر. ارتـدت بدلـة رماديـة اللـون ذات أزرار كبيـرة، وحـذاء عـالي الكعـب، وصففت شعرها الأسود الناعم بعناية، وذهبت إلى الدكتور نادر.

كانـت فـي عيادتـه قبـل الموعـد، وكانـت أول الحاضـرين. انتظرتـه نصـف سـاعة حتـى وصل. عندما رآها، رحّب بها:

– أهلًا أهلًا بأجمل دكتورة نفسية! إزيك يا سارة يا بنتي؟ إيه الغيبة الطويلة دي؟

سارة : يا دكتور حضرتك دايمًا بتقول الكلام الحلو ده... أنا كده هتغر.

دكتـور نـادر : لا، اتغـرّي براحتـك طبعًـا؛ غايبـة عنـي بقالـك كتيـر... يعنـي أنـا اللـي أستاهل! من ساعة ما روحتي الشغل الجديد وانشغلتي عنّا خالص.

سارة : أهو الشغل الجديد ده خلاص قرب يجنني أنا كمان.

دكتور نادر : كان باين عليكي القلق وإنتي بتكلّميني. خير يا سارة... في إيه؟

سارة : والله يا دكتور... هي الحالة اللي أنا بتابعها دلوقتي في القسم؛ تقريبًا الست دي مش بتتكلم خالص... لو كل أسبوعين قالت كلمة أو همهمة يبقى تمام قوي؛ هي موجودة أصلًا من قبل ما أشتغل، واللي كان متابع معاها الدكتور وحيد، بس هو سافر من فترة وحالاته اتوزعت علينا.

دكتور نادر : طيب... لحد هنا كويس والموضوع طبيعي

سارة : أيوة، أنا كمان كنت فاكرة كده، لحدّ ما كنت بتكلم يوم مع الدكتور وحيد وبِتابع معاه الحالة اللي بقول لحضرتك عليها، وهو قالي إن فيه مذكّرات ليها مرفقة بالملف بتاعها.

وإن هي من وقت ما دخلت كانت بتطلب ورق وأقلام علشان تكتب؛ استجابوا لطلبها علشان يعرفوا بتفكّر في إيه لأنها رافضة الكلام! بس الدكتور وحيد سافر قبل ما هي تبدأ، أو تقريبًا كانت كتبت حاجات بسيطة قوي.

دكتور نادر : على فكرة، كل كلامك لحد دلوقتي مش فاهم منه حاجة، أو مش قادر أحدد إزاي أساعدك أو أساعد الحالة!

سارة: هو الموضوع مش محتاج مساعدة، بس كنت عايزة أعرض على حضرتك حاجة وبعدين نتناقش فيها.

وأخرجت من حقيبتها دفترين.

سارة: اتفضّل يا دكتور، حضرتك ابدأ في قراءتهم، وبعد ما تخلصهم هنتقابل تاني... آه، بس الدفتر البني ده الدفتر التاني، وأنا عايزة حضرتك تقراهم بالترتيب.

دكتور نادر ضاحكًا : حاضر يا سِتّي، أما نشوف قصة الدفاتر... يعني أبدأ بالدفتر الأبيض، تمام كده؟

سارة : أيوة بالظبط، الأبيض ده تبدأ بقراءته.

ودّعها دكتور نادر، واتفق معها على مقابلة تانية بعد انتهائه من القراءة.

بعدما أنهى الدكتور نادر مواعيده في العيادة، دخلت مساعدته وأبلغته إنهم استقبلوا آخر حالة، وإن العيادة هتُغلق بعدها.

طلب منها الدكتور نادر الانصراف، وهو هيقفل العيادة بعدما ينتهي من حاجة بيعملها.

أغلق الباب خلفها ودخل مكتبه مرة أخرى، وفتح المذكرات. لم يستطع الانتظار حتى يصل منزله، فغلبه فضوله وبدأ في قراءتها.

***

{ المذكرات الأولى }

سباق مع الزمن... أستيقظ يوميًا في الخامسة والنصف صباحًا على أكثر صوت أكرهه : صوت رنّة المنبّه!

حاولت أن أغيّرها باستمرار، لكن دون جدوى. أستيقظ وفي قلبي فزع. اتضح لي بعد ذلك أن هذا الفزع ليس من صوت المنبّه، بل من خوفي مما سأواجهه طوال اليوم من مهام لا حصر لها؛ مهام كلها متكرّرة، أصبحت أتقنها كالإنسان الآلي.

تحضير الإفطار، وإيقاظ الصغار، والصراخ فيهم حتى يفيقوا سريعًا، ثم الصراخ مجددًا لإنهاء فطورهم بالكامل، وتحضير حقائب المدارس الخاصة بهم.

تجهيز أكل الصغير الذي رُزقت به بعد التوأم ولم يكن في حسباني! أتذكّر يوم معرفتي بحملي في صغيري.

دخل عليَّ رامي المنزل فوجدني شاردة، اقترب مني وسألني بحنانه المعهود : مالك يا نور؟ قاعدة سرحانة كده ليه، مالك؟

لم أردّ عليه ونظرت إليه ودموعي متحجّرة؛ فتحت قبضة يدي التي كنت أغلقها بشدة على اختبار الحمل!

نظـر ليـدي بعـدم فهـم، ثـم اقتـرب وأخـذ الاختبـار، ونظـر إليـه، ووجـده مُزينًـا بخطـين لونهما أحمر!

قـال بفـرح : بقـى هـو ده اللـي مخليكـي مسـهمة كـده؟ ألـف مبـروك يـا نـور! طـب تصدّقي إني كنت عايز أفاتحِك في موضوع الحمل، بس كنت قلقان منك!

– قلقـان منـي بـس؟ مـش خـايف عليّـا؟ هـو أنـا قـادرة علـى البنـات لمـا أحمـل تـاني دلـوقتي؟ أنـا أصـلًا مـش عارفـة أفـوق مـن اللـي أنـا فيـه، وحاسـة إنـي فـي دوّامـة مـا بطلعش منها.

ودخلـتُ فـي نوبـة بكـاء اعتادهـا منـذ ولادتـي التـوأم؛ تحـدّث كثيـرًا بأنـه لـن يتركنـي حتـى لـو اضـطر يأخـد إجـازة علشـان يسـاعدني، وحـاول أن يواسـيني وقـال لـي إنهـم هيبقـوا سندنا لما نكبر، اطمأنّ قلبي لكلمته، وكان كالعادة على حق.

لـم أكـن أعلـم أن هـذا الصـغير سـيأتي ويسـعد أيـامي كلهـا، ويصـبح أكثـر شـخص قريـب من قلبي.

لمـاذا أحكـي لكـم هـذا الموقـف الآن؟ لأثبـت لكـم صـحة المثـل القـديم الـذي يقـول : اللـي تخاف منه ما ييجيش... أحسن منه.

أعـود مـن جديـد إلـى روتينـي اليـومي، أصـطحب صـغيري إلـى الحضـانة المُلحقـة بالمدرسة التي أعمل بها، والملحق بها التوأمتان.

لمـاذا أنـا هنـا ؟ لمـاذا أنـا فـي هـذه الحيـاة ؟ هـل أحبّهـا ؟ لا أعلـم مـن الأسـاس لمـاذا تزوجـت؟ لمـاذا نتـزوج أصـلًا؟ خوفًـا مـن العنوسـة ونظـرات المجتمـع؟ خوفًـا مـن الوحـدة وفراق أحبابنا؟

يقولـون إن الـزواج نصـف الـدين... كنـت سـأتعبد البـاقي مـن عمـري ليكتمـل دينـي كلـه من غير ما أدخل التجربة القاسية دي! نعم، تجربة قاسية جدًا.

تخيّلـوا معـي : فتـاة صـغيرة مدللـة لا تتحمّـل أعبـاء ولا همومًـا، دائمًـا أكلـي وملابسـي جـاهزين فـي أي وقـت، أصـحو وقتمـا أشـاء وأنـام كمـا يحلـو لـي... ثـم، بـين ليلـة وضـحاها، أفيـق لأجـد نفسـي مسـؤولة عـن منـزل كامـل يضـم أشخاصًـا حقيقيـين، ومطلـوب منـي إنهـاء كـل المهـام، وإلا لـن أصـبح فـي نظـرهم "سـوبر ماما". لا أريـد أن يراني أحد مثالية... ولا حتى أولادي.

لقـد تخيّلـت الـزواج شـيئًا آخـر تمامًـا، أجلـس فـي المنـزل، أعـدّ العشـاء وأنـا أرتـدي ملابـس سـهرة مكشـوفة تظهـر مفـاتني، وشـعري يغطـي ظهـري، ويـدخل زوجـي منبهـرًا بجمـالي، يلقـي مـا بيـده ويرفعنـي مـن الأرض وهـو يحتضـني، ويكـاد يختـلّ توازنـه مـن رائحة عطري!

أنا أتكلم بجد... هذا ما تخيّلته، لكن ما وجدته كان شيئًا آخر تمامًا.

عندما أتى رامي لخطبتي، لم أكن أعرفه جيدًا؛ كنت أعرفه عن طريق أخته سارة صديقتي، كان يراني عدة مرات معها، وكان ينظر لي، وأنا أيضًا كنت أنظر له... دون أن يلاحظ أحد.

ومن حكايات سارة عنه، تمنّيت أن أتعرف عليه أكثر... كان كل ما يدور في ذهني وقتها : تعارف... لا أكثر ولا أقل.

ولكنه عندما رآني، رأيت في عينيه نظرة لم أفهمها وقتها، لكني فهمتها لاحقًا.

قال في نفسه : ها هي المرأة التي سأستعبدها باقي عمرها؛ سأتزوجها وأدخلها في دوامة يستحيل الخروج منها...

ويقولون إن المرأة هي التي تربط الرجل بالأولاد! تبًا لهم ولأقاويلهم؛ لا يتقيّد سوى المرأة التي لا تستطيع الابتعاد عن أولادها.

غريزة الأمومة التي وُلدنا بها... غالبًا أريد أن أفتح صدري وأنزعها، ثم أغلقه مسرعة حتى لا تنمو ثانية بداخلي، هي التي تعذّبنا وتجعلنا نتحمّل أي شيء في سبيل أولادنا. كم من رجل ترك أولاده وراء ظهره وبدأ حياته من جديد مع امرأة أخرى! وأنجب أطفالًا آخرين فضّلهم على أطفاله... كمن يختار عربة جديدة ويبيع القديمة.

هل رأيتم أحدًا يسأل عن عربته القديمة بعد بيعها؟ أو يطالب صاحبها الجديد يزوّد لها بنزين ٩٢ بدل ٨٠ حتى لا تفسد؟!

هذا بالضبط ما يحدث مع أطفاله القدامى... لا يسأل عنهم؛ وكأن ذنبهم الوحيد أنهم أبناؤه.

كم أنا مُحبّة للدراما! سامحوني... فأنا أحكي ما بداخلي، ولكن دعونا من صراعاتي الخارجية، فهي لا تنتهي... سأعود من جديد لصراعي الداخلي.

ها أنا أسألكم بصدق : هل كان سيتوقف العالم لو لم أتزوج وأنجب؟ ما الخلل الذي كنت سأسببه لهذا العالم إذا لم أتزوج وأظل عازبة؟

أرى نفسي أحيانًا طويلة، ممشوقة، شعري طويل مموّج يطير حول رأسي كأنه يريد الحرية هو الآخر، ولا يريد أن يقيده أحد أو يستقر في مكان.

أدفعه من على وجهي حتى أرى العالم، ثم أتحسّس شعري من جديد، فلا أجده هكذا.

لكنه شعر مجعّد مكور في عدم اهتمام على هيئة كعكة أعلى رأسي لا تتحرّك، وكأنها تاج استقر على رأسي يخبرني أنني أم ولا يحق لي غير هذا الشكل!

أين شعري الطويل الذي يطير حول وجهي؟ لماذا لست ممشوقة وطويلة كما تخيلت؟

مـاذا حـدث جعـل بطنـي منتفخـة إلـى هـذا الحـد؟ لمـاذا تكسـوها علامـات طويلـة تشـقها كالثعابين؟ أتحسّسها بحسرة، وأغطيها سريعًا كي لا يراها غيري.

صـدري المسـتدير الشـامخ أصـبح متهـدّلًا، كأنـه شـخص مـنكس الـرأس. كـل علامـات أنوثتي قد تغيّرت تمامًا.

لـم أكـن يومًـا فتـاة نحيفـة، ولكنـي كنـت أحـافظ علـى قـوامي وأتـابع أكلـي جيـدًا وأطلـب مـن أمـي أن يكـون الأكـل مسـلوقًا أو مشـويًا... آه، أيـام كنـت أتـدلّل! الآن آكـل أي شيء... لا مجال للرفاهية.

لمـاذا لـم تجلـس أمـي معـي وتهـدّدني مثلمـا كانـت تفعـل أيـام الثانويـة العامـة وتحلـف بجميع الأديان أنني لو خرجت من المنزل ستكسر رجلي؟!

إن الـزواج أصـعب بكثيـر مـن الثانويـة العامـة... يـا ليتـك نصـحتِني يـا أمـي! ولكـن كيف تنصحني وهي الأخرى عاشت نفس مأساتي؟!

أعتـرف أننـي أتحـدث كثيـرًا، وأشـكو أكثـر، ولكـن رغمًـا عنـي، فالأيـام أصـبحت تجـري من حولي وأنا لا أستطيع اللحاق بها.

كيـف ربتنـا أمـي أنـا وأخـواتي الأربـع، وأجـادت هـذا ببراعـة؟! كانـت أمـي سـيدة منـزل لا تعمـل، وكانـت هادئـة الطبـع والملامـح؛ أتـذكر تلـك الأيـام جيـدًا... أيـام هادئـة إيقاعهـا بطيء.

تجلس أمي معنا وتعدّ لنا الطعام، ودائمًا ما توجد في البيت كل أنواع المخلّل التي توضع في برطمانات بلاستيكية مرصوصة بجانب بعضها البعض في صدر المطبخ، كأنها وسام شرف يوضع لكل أم في هذا الوقت.

كانت كل البيوت في هذا الوقت تشبه بعضها البعض؛ بيوت دافئة عامرة يغمرها الحب. لا أعلم ما الذي كان يجعل البيوت بهذا الدفء والهدوء! أهو الأمان في هذا الوقت؟ بالتأكيد هو...

فالأيام التي أعيشها الآن مع أولادي على عكس تلك الأيام تمامًا... فلم تكن روح المنافسة الغريبة قد ظهرت فيما مضى، وكأن من لا يذهب إلى ثلاثة تمارين لرياضات مختلفة ودورتين في لغات لا أعرف عنها شيئًا، فسيراه الناس كأنه كائن طفيلي لا وجود له ولا يستحق العيش معهم.

فبعد العمل، أصطحب أولادي في السيارة بعد يومهم الطويل في المدرسة، وبنبرة التهديد نفسها الخاصة بكل أمهات جيلي، أطلب منهم إنهاء واجباتهم المدرسية لأننا متوجهون إلى التدريب، وبعد التدريب كورس خاص بهم، فلا وقت لدينا طوال اليوم.

ينتهي اليوم الشاق، وننتهي معه.

نذهب جميعًا إلى البيت للنوم لمواجهة يوم آخر يشبه اليوم الذي سبقه.

من الذي زجّ بالمرأة في تلك الصراعات؟ من الذي أقنعها وألح عليها أن تنزل إلى ساحة القتال؟ لا تقولوا لي المشاركة والمساواة وكل تلك الترهات التي ظهرت فجأة!

أحب أن أوضح لكم أن زوجي كان ميسور الحال، وأن راتبي لا يساعد بشيء، وهو كثيرًا ما يراني وأنا منهكة، ويقول لي إنني أحمل نفسي فوق طاقتها ويجب عليَّ أن أستريح.

كنت أرد عليه بعنف وصوت عالٍ كأنني عُينت للدفاع عن حقوق المرأة وأقول له : أريد تحقيق ذاتي ونجاحي الخاص والشعور بكياني! وإنني أعرف كيف أوفق جيدًا بين عملي واهتمامي بالبيت والأولاد ودروسهم وتمارينهم.

وأنا أصرخ بداخلي وأريد أن أقبل يديه وأقول له : أجبرني على ترك العمل!

ماذا أفعل بنفسي؟! أنا أحترق، ثم أعود وأقول لنفسي وأحمّسها : من يعلم ماذا يخبئ لكِ المستقبل؟ من الممكن أن أصبح وزيرة أو أي امرأة قوية ذات شأن وبصمة في المجتمع.

ولكن للأسف، مرّ العمر ولم أحقق أيًا من أحلامي، ظللت أجري وراء الأيام التي لم ألحق بها أبدًا، وأولادي الصغار يجرون أمامي... حتى ما عدت أرى : أين هم؟ أين صغيري الذي كنت أحمله دومًا على يدي؟ هل مرت الأيام بهذه السرعة؟

التحق ابني الأصغر بكلية الطب، وتخرّج وأصبح طبيبًا... لا أصدق سرعة الأيام!

وتزوجت أخواته، وكل واحدة لديها بيت وتعيش في الحلقة المفرغة نفسها التي كنت أعيشها... متى مرّ عمري بهذه السرعة؟ لا أتذكر!

أحداث كثيرة لا أتذكرها، وخصوصًا من طفولتهم، مع أنني أتذكّر طفولتي جيدًا وأتذكّر مواقف كثيرة منها المفرح ومنها المحزن! إذن، ذاكرتي جيدة، ولم يصبها خلل.

ولكني في قرارة نفسي أعلم لماذا لا أتذكر ذكريات أطفالي... أنا لم أصنع معهم ذكريات سعيدة، كل ما أتذكره صراخي عليهم دائمًا حتى نستطيع اللحاق باليوم الذي يجري.

ولكني كنت أحتضنهم وهم نائمون، وأحيانًا أبكي من قسوتي عليهم، وأقبل أياديهم الصغيرة التي كبرت دون أن أشعر... الآن أتمنى لو احتضنتهم أكثر وأكثر، ماذا يفيد التمني بعد مرور العمر؟ ولكني أقول لنفسي إنني كنت أفعل هذا لمصلحتهم.

وبالأخص بعد وفاة رامي، زوجي الحبيب... فقد أصبح كل الحمل عليَّ، ولا أريد أن أقصر في شيء.

لقد خطب ابني الصغير، صغيري الجميل، وسوف يتزوج خلال أشهر معدودة؛ لن أتمكّن من ممارسة دور الحماة الذي كنت أستعد إليه، لأنه خطب فتاة أجنبية تعرف عليها خلال بعثة خاصة بعمله في الخارج.

لا تفهمني ولا أفهمها، وذلك مريح بالنسبة لابني... فهو علم جيدًا أننا لن ندخل في صراعات مع بعضنا البعض، فقد خطبها بخاتم بسيط تعبيرًا عن حبه لها، ونزلا إلى مصر وجهّزا بيتهما بطريقة متواضعة وعصرية.

كنت أعترض دائمًا على ذوقهما وعدم إشراكي في تأثيث منزلهما، ولكنه كان يقبل رأسي ويحتضنني بحنان.

يذكرني بأبيه وهو يهدأ ثورتي ويقول : إحنا عايزين حاجة بسيطة، علشان لو جات لينا فرصة شغل بره يبقى البيت ده استراحة لينا كده في الإجازات.

أستمع إلى كلماته في ضيق صدر، لكن ما باليد حيلة؛ زوجته كانت طيبة معي، لا تعترض إذا ذهبت إليها في أي وقت، فهي تمارس حياتها الطبيعية كأنني لست موجودة؛ إذا كان لديها عمل تجلس على الكمبيوتر وتنجزه كأنني لست موجودة.

وإذا كان لديها أي مشوار، تنزل إلى الشارع دون الاكتراث لي، تلبس ملابسها وتقبلني وتغادر؛ لا أنكر أن تلك التصرفات كادت تطير لي عقلي.

ولكن كان ابني يقول لي : دي عادتهم وطبيعتهم مش هتتغير... ما تشغليش نفسك بيها، كأنه يسكتني!

كنت أنظر له وأقول في سري : راجل إيه ده اللي مش عارف يمشي كلمته على مراته!

ولكني في قرارة نفسي ألتمس له العذر، فهو صغير السن لا يعرف ماذا يفعل... والزواج في سن صغير عبء كبير لا يستطيع عليه كل إنسان.

أتذكر جيدًا أنني لم أكن أعرف كيف أتعامل معهم وهم صغار. دائمًا أسأل نفسي : لماذا لا توجد مدرسة تأهيل للمقبلين على الزواج؟

نعم، أنا لا أمزح... نحن ندخل المدارس والجامعات حتى نكمل تعليمنا وينضج عقلنا ونلتحق بعلم يفيدنا ويفيد المجتمع إلى آخره.

الأب والأم يشغلان أهم وظيفة في التاريخ : بناء جيل... إذا لم يكونا على استعداد تام، فسوف ينتج جيلًا مشوّهًا مشوشًا.

دائمًا أقول هذا لنفسي حتى أبرر تصرفاتي الغبية وأخطائي وحماقاتي مع صغاري.

لا يفيد هذا الكلام الآن، فقد كبر الأولاد، ولا يتذكّرون شيئًا من هذا، ولا أنا أيضًا؛ أنا أصلًا أجد راحتي في الوحدة... وأنا جالسة بمفردي أنظر من الشرفة، لا أريد أن أزعج أحدًا ولا أحد يزعجني.

لهذا اتخذت قرارًا بعد مناقشة مع أولادي، وهو أن أنتقل بكامل إرادتي إلى دار مسنين.

كانت أيام كلها مشاحنات بيني وبين أولادي، وخصوصًا البنتين التوأم لتعلقهما بي تعلقًا فظيعًا.

وكانا يقولان لي : الناس هتقول عننا إيه؟ هيتفكروا إننا ما عندناش قلب ورميناكِ في دار مسنين على آخر الزمن!

ولكنني رفضت رفضًا تامًا؛ لا أريد أن أصبح عبئًا على أحد، فقد اعتدت الوحدة منذ وفاة رامي وأصبحت أميل للعزلة.

أذهب إليهم كل فترة، وأحيانًا يأتون إليَّ بصغارهم؛ يحبونني جدًا، وأنا أيضًا أحبهم أكثر من حبي لأمهاتهم، ولكني لا أقول لهم هذا؛ أحتفظ بسري الصغير هذا مع أحفادي.

يتوسلون إليَّ حتى أذهب للعيش معهم، ولكنني لا أقبل... من الممكن أن أذهب يومين لا أكثر، وسرعان ما أعود إلى بيتي وعزلتي التي أحبها واعتدتها؛ أحب منزلي وسريري وشباكي الصغير، نافذتي على العالم، وأحب أن أكون بمفردي وعلى راحتي، بمعنى أصح.

أما صغيري، فهو كعادته هادئ وخفيف كالنسمة... دائمًا يقول لي : افعلي ما يحلو لكِ وما تجدين فيه راحتك، وإذا احتجتِ أي شيء فأنا بجانبك وبيتي هو بيتك.

لا يحب أن يجادلني ويتعبني بالمناقشات... يريد أن يرضيني فقط.

قررت الانتقال إلى الدار في هدوء، فكلما قلت لن أرضى أبدًا أن أرهق بناتي، فعند مراعاتهم لي سيبذلن مجهودًا مضاعفًا، بخلاف أزواجهن وأولادهن، وأنا لن يرضيني ذلك.

لقد كنت أعوّض ما فاتني معهم في طفولتهم، وأعوّضهم عما افتقدته معهم، أراعيهم جيدًا عندما حملن بأطفالهن، كنت أذهب وأجلس معهن وأسهر بأطفالهن وأدعهن يرتاحن حتى لا يذقن ما ذقت في تلك الأيام.

دائمًا أسمع كلمة : فاقد الشيء لا يعطيه!... من أين أتى صاحب الحكمة بهذا المعتقد؟

ففاقد الشيء يشعر به وبشدة، ويريد أن يعوّض به من حوله، وخصوصًا لو كان أحد قريبًا على قلبه مثل أولادي.

انتقلت إلى الدار وأصبحت أموري مستقرة... قبل قليل أخبرتكم أنني أحب الوحدة، وسوف تسألونني إذن لماذا ذهبت إلى الدار؟

كان من الممكن أن أجلس في بيتي وأنعّم بوحدتي! أنا فعلًا أحب الوحدة، ولكن في الوقت نفسه، أريد أحدًا ليعتني بي؛ يعطيني دوائي، ويرتب لي غرفتي، ويعد لي وجبة ساخنة يوميًا... لهذا اخترت أن أعيش في الدار.

وهناك لم يجبروني على الاختلاط بأحد، احترموا رغبتي بأنني لا أحب الجلوس مع الغرباء إلا برغبتي.

إذا تجمع النزلاء ووددت الجلوس معهم، أجلس وأستمع إلى قصصهم المثيرة والمؤثرة في الوقت نفسه؛ وإذا ضاق صدري من أحاديثهم المملة المتكررة، أغلقت على نفسي باب حجرتي، وسرحت بمخيلتي، وألححت على ذاكرتي التي لا تسعفني أبدًا في تذكر طفولة أولادي... يا لها من ذاكرة ضعيفة هشة لا تتذكر إلا ما يحلو لها.

دائمًا أتذكر بناتي التوأم وهما في فترة مراهقتهما؛ كانتا مختلفتين تمامًا في الطباع والتصرفات، وهذا كان يحيرني كثيرًا!

فالكبرى، أقصد من وضعتها أولًا، كانت هادئة جدًا ولا تفتعل أي مشكلات، أما أختها التي تليها بدقائق معدودة، فكانت مثيرة للمشكلات طوال الوقت.

دائمًا ترد على كلامي بشكل هجومي غير لائق، تريد أن تخرج وقتما يحلو لها، ولا تريد لأحد أن يعدل عليها.

كانت تتأخر في دروسها ولا تعود مع أختها بحجة أن لها زميلات يتحدثن معًا بعد الدرس، أما أختها فهي انطوائية ولا تتحدث مع أحد.

كل يوم تفتعل حجة مختلفة حتى تخرج وتعود وقتما تريد... كل ذلك وهي ما زالت في الصف الثالث الإعدادي!

كنت أقول لنفسي حينها : إذا كانت بتعمل كده في الإعدادية أومال لما تدخل الكلية هتعمل فيا إيه؟!

أراها وهي عائدة وبقايا مساحيق التجميل تظهر، فهي لم تُزلها بعناية... أفتش في أغراضها ويبدأ صراخنا في وجه بعضنا البعض... فأجد أحمر خدود وروجًا.

أصرخ فيها : وأنتِ كنتِ في درس ولا رايحة فرح إن شاء الله!

ترد عليَّ بكل جرأة وهي تقول : ما كل أصحابي بيحطوا، فيها إيه؟!

أتعجب من ردها وعدم خوفها مني؛ ألقيها أمامها في صندوق القمامة، وأتوعد لها أنني لو رأيتها تضع أي شيء على وجهها ستحرم من الخروج مدة شهر.

كل تلك مشكلات تحدث دائمًا، ولكن مشكلتنا الحقيقية بدأت عندما سمعتها تتحدث في هاتفها بصوت هامس...

وقفت على باب غرفتها وأنا أستمع لهمسها وضحكتها الخفيفة، ومن الحديث فهمت أنها تُحدث ولدًا.

لا أعرف وقتها لماذا لم أنفعل! لماذا لم أدخل عليها غرفتها وأصفعها على وجهها؟

ولكنـي تركتهـا وانسـحبت بهـدوء إلـى داخـل غرفتـي أبكـي بحرقـة... ولا أعـرف لمـاذا أبكي.

هـل بسـبب سـوء تربيتـي لهـا؟ أم بسـبب خلافاتنـا المسـتمرة؟ فكـرت كثيـرًا ولكنـي فـي النهايـة عرفـت سـبب فعلهـا؛ هـي تفتقـد أباهـا، تفتقـد كلمـات الحـب والمـدح مـن رجـل فـي حياتهـا، فكـل أنثـى تعتبـر والـدها هـو حبهـا الأول؛ إذا أحبهـا بصـدق توازنـت نفسـيًا ورأت أن الرجـال فـي حياتهـا لا بـد مـن أن يقـدروها مثـل أبيهـا؛ أمـا إذا مـارس أبوتـه فقط، لجأت إلى كلمات الحب والاهتمام من الخارج.

أنـا ألـتمس لهـا العـذر، لقـد فقـدت أباهـا قبـل أن تعـرف مـا هـو الأب، وكنـت أخشـى عليهـا فبالغـت فـي شـدتي وقسـوتي حتـى أحميهـا هـي وأخواتهـا، لـم أكـن أعلـم أننـي أضيعها وأدفعها إلى الهاوية.

كانـت قـد وصـلت إلـى الصـف الثـاني الثـانوي، حينهـا بـدأت معالمهـا الأنثويـة فـي الظهور، وككل فتاة في سنها تفرح بما نضج لديها.

اسـتجمعت شـجاعتي ذات يـوم، ودخلـت عليهـا وهـي تتحـدث فـي الهـاتف؛ لـم ترتبـك كما توقعت! ولم تغلق هاتفها خوفًا مني.

بـل نظـرت إلـيَّ فـي لا مبـالاة مصـحوبة بتحـدٍ وقالـت لـي : إيـه! داخلـة تضـربيني وتاخدي التليفون وتحلفي إني مش خارجة من البيت!

ذهلت من ردة فعلها، ولم أقو على الكلام، بل وجدت نفسي أجلس بجانبها وسحبت هاتفها ببطء، وأغلقته وأخذتها في حضني وبكيت كما لم أبكِ يومًا... تكلمنا كثيرًا يومها عاهدتها أنني سأتغير وأصبح لها الأم التي تتمناها، لم أكن أنتظر منها ردًا أو وعودًا، ولكنها بكت من قلبها في هذا اليوم؛ لم أرها تبكي بحرقة كهذا اليوم، وكأنها هي الأخرى كانت تحمل في قلبها الكثير.

أصبحت أسمعها أكثر، حتى إنها كانت تحكي لي عمن مروا في حياتها سابقًا! أسمعها وأنا أستشيط غيظًا، ولكني أتمالك نفسي حفاظًا على عهدنا؛ وكما قلت سابقًا، فأنا ألتمس لها العذر؛ هي تبحث عن أبيها في كل شخص تحدثه.

أصبحت علاقتنا أقوى وأجمل؛ تستشيرني في كل تفصيلة صغيرة.

مرت الأيام في هدوء حتى رزقت بالحب الحقيقي في حياتها، واطمأن قلبي عليها حينها.

سأكمل، لكن الآن حكايتي في الدار : كان يلفت نظري بعض الأشياء الغريبة. كلنا في الدار نساء، لا يوجد رجل معنا.

فكرت: هل السيدات فقط من يلتحقن بدور المسنين!

سألت بعض العاملين ذات مرة، ولكن لا أحد كان يعطيني إجابة مفهومة أو واضحة.

شـيء آخـر لفـت نظـري : عـدد زيـارات الأبنـاء لأهـاليهم قليلـة جـدًا، تكـاد تكـون معدومة.

علـى عكـس أولادي، يـأتون لـي بانتظـام هـم وأحفـادي، أرى نظـرات الحقـد والغيـرة فـي عيـون النـزلاء معـي، حتـى إننـي ذات مـرة قلـت لأولادي : لا تـأتوا معًـا، فأنـا أخـاف عليكم من نظرات من حولي.

وتأكـد ظنـي عنـدما قالـت لـي زميلـة معـي : أنـتِ ولادك مـش سـايبينك خـالص، دول رايحين جايين عليكِ، لما هما كويسين كده قعدتِ هنا ليه؟

أربكنـي سـؤالها، قـرأت المعـوذتين فـي سـري، وقلـت لهـا : أنـا بحـب أقعـد براحتـي، وبعـدين بنـاتي أجـوازهم صـعبين قـوي، مـاينفعش أقعـد عنـدهم، وابنـي مراتـه أجنبيـة مـا لهـاش فـي خدمـة حماتهـا والحاجـات دي؛ ادعيـت علـى أبنـائي بالكـذب حتـى لا تصيبهم عين تلك المرأة؛ وحاولت تغيير الموضوع سريعًا.

وسألتها : أمال أنتِ فين أولادك؟ مابيجوش يزوروكِ ليه؟

ردت عليَّ ردًا غريبًا وقالت : لا، أنا اللي جيباني هنا أمي... لم أفهم ردها.

كيـف لامـرأة فـي هـذه السـن تـأتي بهـا والـدتها إلـى دار المسـنين؟! والأغـرب مـن هـذا، والسـؤال الـذي دار فـي ذهنـي وقتهـا : كـم عمـر والـدتها؟ وأيـن هـي؟ لمـاذا لا تسـكن معها في الدار؟

أسئلة تدور في رأسي، ولكني لا أهتم؛ فمعظم الوقت ردود زملائي غير منطقية، لذا لا أتحدث إليهم كثيرًا ونادرًا ما أخرج من غرفتي أصلًا.

أراقبهم فقط من شباك غرفتي، والذين يأتون لزياراتهم عادة شباب وبنات في مجاميع، ولا يجلسون معهم كثيرًا مثلما يفعل أولادي.

ذات مرة، تصادف وجودهم مع وجودي في جنينة الدار؛ فاقتربوا مني محاولين فتح حديث، لكنني تجاهلتهم ولم أجب، فانصرفوا.

كما أشتاق إلى صغيري فهو مسافر إلى العمل في الخارج... أنتظر خطاباته التي تأتيني دائمًا، فقد تعاهدنا أنا وهو على كتابة الرسائل كما كان يفعل رامي معي أيام خطبتنا.

لا أحب التحدث في الهاتف، وأُصر على الرسائل المكتوبة والصور الملتقطة بالكاميرا... أحتفظ برسائله هو ورامي في صندوق وأعتني به بشدة حتى لا تتلف أي منها.

سبب حبي للخطابات هو رامي، حبي الأول والأخير؛ في بداية خطبتنا كنت أخجل بشدة من التحدث معه، وكنت أتلعثم ولا أستطيع تكوين جملة واحدة على بعضها.

طبعًا رامي كان يلاحظ خجلي واضطرابي، فاقترح عليَّ أن نكتب لبعضنا البعض رسائل؛ كانت فكرة غريبة بالنسبة لي، ولكنها في الوقت نفسه فكرة رومانسية،

سرعان ما فهمت غرضه، وهو أن أقول كل ما بداخلي دون خجل... ومنذ ذلك الوقت أصبحت خطابات رامي أجمل شيء حدث لي.

كنت أقرأها مئة مرة، حتى أصبحت أحفظها عن ظهر قلب، وأعيدها كأنني لا أريد أن أنسى أي كلمة كتبها لي.

أفتقد رامي وأحن إلى صوته وكلامه الدافئ... توفي في سن صغير وترك لي مسؤولية كبيرة لم أكن أتخيل أنني أستطيع حملها، كان موته أكبر صدمة في حياتي، فكما قلت سابقًا هو حبي الأول والأخير؛ رغم أن زواجنا كان زواجًا تقليديًا فإنه كان حنونًا طيبًا رقيق المشاعر؛ لم أكن أتوقع أن أجد رجلًا مثله في لين قلبه.

كأن لم يكن مقدرة لي السعادة الدائمة، أو كأن الدنيا قالت لي : كفاية عليكِ قوى كده.

لا أحب تذكر هذا الوقت؛ لأنه يصيبني بالحزن، وأشعر أن الأحداث لم يمر عليها كل تلك السنين الباهتة من دونه.

أحكي لكم عن رامي الآن، لأني رأيت من شرفتي رجلًا يشبهه كثيرًا ولكنه كبير في السن، له الوجه الطيب نفسه ونظرة عينيه الحزينة.

***

أغلق المذكرات الأولى، ونظر في ساعته فوجدها تخطت الساعة الواحدة.

قال لنفسه : ياه! الوقت سرقني قوي، أروح دلوقتي وبكرة أكمل.

كان يفكر فيما قرأه. لا يستطيع إعطاء أي انطباع غير أنها كتابات عادية تصف شعور الإنسان في مراحل مختلفة من حياته.

امرأة عادية كانت تخاف من تحمل المسؤولية ثم اضطرت إلى تحملها، وسارت الحياة طبيعية بعد ذلك.

لن أستطيع فهم الحالة حتى أفرغ من قراءة المذكرات الثانية.

مر يومان ولم تجد سارة أي مكالمة من الدكتور نادر، فبادرت بالاتصال به...

سارة : مساء الخير يا دكتور.

دكتور نادر : مساء الفل يا سارة، أخبارك إيه؟

سارة : لا، الأخبار عند حضرتك؛ طمني قرأت المذكرات؟

دكتور نادر : آه، خلصت أول واحدة ولسه مابدأتش في الثانية، أنتِ عارفة الشغل، ماعنديش وقت خالص، بس بكرة بالكتير هكون قرأتها.

سارة : ربنا يكون في عونك يا دكتور، براحتك أنا مستنية ردك بعد ما تخلص، بس كنت عايزة أعرف إيه انطباعك على أول واحدة؟

دكتـور نـادر : والله المـذكرات عاديـة، انطبـاعي إنـه كـلام طبيعـي، حـد كـان متلخـبط فـي بدايـة حياتـه، وبعـد كـده بقـى طبيعـي زي العـادي بتاعنـا كلنـا، والسـت اللـي كاتبـة المذكرات شكلها عاقل يعني!

سارة : عمومًا لما تخلص المذكرات الثانية حضرتك هتكلمني لوحدك.

بعـدما انتهـى مـن عمـل يـوم شـاق، نظـر إلـى المـذكرات الثانيـة، وكـان يفكـر أن يبـدأ فـي قراءتها، ولكنه تراجع عن قراره، فسيذهب إلى المنزل أولًا، ثم يبدأ فيها.

دخـل منزلـه، وأعـد لنفسـه كوبًـا مـن الشـاي حتـى يسـاعده علـى القـراءة، وبـدأ فـي قـراءة المـذكرات الثانيـة، كمـا كتبـت الـدكتورة سـارة علـى الغـلاف الخـارجي لهـا : " **المـذكرات الثانية** "

{ المذكرات الثانية }

يفتح رامي باب الشقة وهو ينادي باسمي، لأنه معتاد منذ أن تزوجنا أن يجدني في انتظاره دائمًا. أجلس على الكرسي المقابل لباب الشقة سعيدة بحضوره مثل طفلة صغيرة عادت أمها وهي وحيدة. ولكنه لم يجدني فنادى عليَّ مرة أخرى.

ثم خرجت من حجرتي وأنا مبتسمة أمشى ناحيته على مهل.

قلت له : غمض عينك الأول، عندي ليك مفاجأة حلوة قوي بس اوعى تفتح.

استجاب لي وأغمض عينيه، ثم فتحهما ببطء ليجد اختبار الحمل في يدي، وبه علامتان لونهما أحمر.

ينظر لي في عدم فهم وارتباك ويقول في حذر : هو ده يعني إيه؟! أنتِ كده حامل صح؟

لقد تأخر حملي ستة أشهر فقط، ولكني كنت قلقة جدًا، ليس لاشتياقي للأطفال، ولكن لهواجس كانت بداخل رأسي؛ فقد كانت لي عمة كبيرة في السن لم تنجب لمده اثنى عشر عامًا وتزوج زوجها بأخرى وأنجب أطفالًا وهي ظلت وحيدة بقية عمرها... أتذكرها جيدًا عندما كانت تأتي لزيارتنا، كنت أشعر أنها تريد القول لأبي

أن تعيش معنا؛ كانت تفتقد جو الأسرة، ولكن أبي كان يمتلك قلبًا صلبًا لا يتحرك ولا يتعاطف.

كانت تقول عند زيارتنا : أنا بحب قعدتي معاكم قوي، بحس أن الروح بترد فيا تاني.

ترد أمي وتقول لها : يا حبيبتي ده بيتك، خليكِ معانا تنورينا. كانت أمي تحبها وتشعر أنها ظلمت من الحياة.

ولكن أبي بنظرته الفارغة التي كانت دائمًا تعتلي وجهه يرد وهو متثائب : آه، أبقي تعالي أي وقت، البيت مفتوح... ويستأذن للدخول إلى النوم، فتحس هي بالإحراج وتتصرف.

مرت عليها السنوات حتى جاءنا خبر وفاتها؛ حزنت كثيرًا عليها؛ وطوال الستة أشهر الماضية كنت أرى نفسي عجوزًا وحيدة مهملة، أموت في بيتي دون أن يشعر بي أحد.

ولكن خيب الله ظني ورزقني بالحمل... فرح رامي كثيرًا وبدأ في البكاء من شدة فرحته وهو يحتضنني؛ أحسست وقتها أنه كان ينتظر خبر حملي أكثر مني، ولكنه كان يخشى أن يتحدث معي حتى لا أتأثر؛ ألم أقل لكم أنه رقيق المشاعر؟

طلب مني مثل كل الأزواج أن أرتاح تمامًا ولا أتحرك، وأن كل شيء سوف يفعل نيابة عني.

قلت له وأنا أقبله وأمسح ما تبقى من دموعه : أنا لسه في الأول، وبصراحة مش هتدلع عليك وأقولك مش قادرة؛ أنا حاسة أني كويسة، وعمومًا طبعًا لما أحس بأي تعب هرتاح، ولما نروح للدكتور أكيد هو هيطمنا أكثر ويشوف موضوع الراحة ده. أنت عارف أن ما بعرفش أقعد خالص.

يرد عليَّ وهو يضحك : ما أنا اتحايلت عليكِ تنزلي تشتغلي علشان تفرغي شوية من الطاقة اللي عندك دي بدل ما برجع كل يوم ألاقيكِ مغيرة نظام الشقة.

أرد عليه وأنا أجلس وأفرد ذراعي بجانبي : لا، أنت عارف رأيي في موضوع الشغل ده من زمان، ده مرفوض بالنسبالي، وكمان خلاص جه موضوع الحمل ومفيش شغل خالص.

يتعجب رامي من كلامي ويقول : أغرب ست شفتها في حياتي، مش عايزة تشتغلي، وكمان أنا اللي بتحايل عليكِ! الآيه مقلوبة خالص.

تبسمت لفترة وهي تنظر إليه وتقول له : بص، أنا أول مرة هقولك سبب أني رافضة الشغل ليه... ماما ربنا يديها الصحة ويشفيها كانت بتشتغل زي ما أنت عارف طبعًا، وترجع من الشغل عايزة تلحق توضب الغدا والبيت قبل ما بابا يرجع، لأنه

كان مع أي تقصير منها ولو بسيط يهددها ويقول لها : سيبي شغلك والتفتي لبيتك وأولادك؛ بصراحة هي عمرها ما قصرت معانا في حاجة خالص، بس كنت بحسها زي الإنسان الآلي اللي خلاص متبرمج وحافظ هو بيعمل إيه.

ترجع من الشغل قبل ما تغير هدومها تبقى حاجة الأكل على النار... تدخل بسرعة تغير أكون وصلت أنا وأخواتي من المدرسة، على بال ما نساعدها في تجهيز السفرة بابا يكون وصل، نتغدى مع بعض وبعدين تختفي من أمامنا لتنام من تعب وإرهاق يوم طويل، وتصحى بعد ساعتين تشوف مذاكرتنا، وهكذا كل يوم شبه اللي قبله.

كانت بتعمل معايا كل حاجة، بس أنا كنت محتاجة أرغي معاها، نتكلم في أي موضوع حتى لو تافه.

وده ما كنتش بلاقيه معاها خالص، على طول بحسها مشغولة وتعبانة ووراها مليون حاجة، أنا بقى قررت أني أبقى أم مثالية، كل وقتي لبيتي وولادي، أسمعهم وأتكلم وألعب معاهم.

ينظر إليَّ رامي وهو متأثر بكلامي، ولكن لا يحاول أن يظهر لي تأثره، ويقول : أنتِ هتبقي أحلى وأجمل أم في الدنيا.

تمر الأيام، ونذهب إلى الطبيب مرة أخرى وأنا في شهري الثالث ليخبرنا أنني حامل في توأم.

كنت سعيدة، ولكني كنت قلقة؛ كيف أستطيع أن أربي طفلين وأنا بلا أي خبرة تمامًا، وأمي مريضة وحالتها تتدهور يومًا بعد يوم، ولا تستطيع أن تعتني بنفسها؛ حتى أنا التي كنت أعتني بها، لأنها لم ترزق ببنات غيري وأخواتي ذكور.

كان رامي يطمئنني ويقول لي دائمًا : ما تحمليش هم وأنا معاكِ، أنا هساعدك في كل حاجة.

وحدث ما كنت أتوقعه وأخشاه... توفيت والدتي وأنا في نهاية شهري السابع؛ كان أصعب خبر يمكن سماعه وخصوصًا في ظروفي واحتياجي الشديد لها حتى لو كانت مساعدتها بالنصائح فقط.

لا أعلم كيف ولدتُ؟ ومتى؟ كأن شخصًا آخر كان يحل محلي؛ أكاد لا أميز أطفالي من كثرة الدموع بعيني؛ رزقت بفتاتين جميلتين، ولكني لم أفرح بهما، فقد كنت في حالة نفسية سيئة.

فمن ناحية موت والدتي وحزني على فقدها، ومن ناحية أخرى، الإرهاق الجسدي الذي كاد يطيح بعقلي؛ لم أكن أشعر بالوقت ولا بالجوع ولا بالشبع، لا أشعر سوى بالحزن.

لا أعرف متى ولدت؟ كم أصبح عمر بناتي؟ هل أيام أم أسابيع أم شهور؟

كل شيء أصبح يمر من أمامي كأنني لا أعيشه... كان رامي معي لا يتركني، ولكني لم أكن أشعر به أيضًا.

كان يعلم جيدًا صدمة موت أمي وعواقبها عليَّ، وحاول كثيرًا أن يخرجني مما أنا فيه، ولكن طبعًا دون جدوى.

أتذكر أنه دخل عليَّ ذات يوم وهو مبتسم ابتسامته الوديعة وقال : حبيبتي! هل نامت البنات؟.

رددت عليه بإشارة من رأسي دون كلام. وبدأ في التحدث وقال : طيب كويس، عايز أتكلم معاكِ وأنتِ رايقة كده.

اقترب مني وقال : إيه رأيك نعمل للبنات سبوع؟ مش سبوع بالمعنى اللي في بالك، بس حتى ندبح ونعمل عقيقة ونعزم أصحابنا وقرايبنا هنا في البيت، ندخل الفرحة علينا شوية بدل الجو ده.

نظرت إليه بغضب، ودموعي تندفع من عيوني وقلت له : أنت اتجننت؟ احنا في إيه ولا في إيه! سبوع إيه وأكل لمين؟ أنت مش حاسس بحاجة! أمي ماتت.

لم يدعني أكمل كلامي وبدأ صوته يعلو على غير عادته...

وقال : أمك ماتت من ثمان شهور، وأنا بحاول أساعدك بدل الاكتئاب اللي أنتِ معيشانا ومعيشة نفسك فيه؛ وبعدين اشمعنا أنتِ اللي معيشة نفسك في الغم ده؟ ما أبوكِ من بعد ثلاث شهور وهو بيدور على عروسة جديدة تقعد معاه، ولا هو الحداد عندنا احنا بس!

قال لي تلك الكلمات وهو يخرج من الحجرة ويرزع الباب حتى أيقظ الطفلتين.

وكالعادة، ظللت أبكي، فأنا أصبحت أبكي من أي شيء، إذا بكى الأطفال بكيت، إذا استيقظا من نومهما بكيت، إذا رأيت شكلي ووزني الذي زاد حوالي الضعف بكيت؛ كنت أحاول التغلب على ضعفي وأقاوم، ولكني لا أستطيع؛ أحيانًا أتغلب على ضعفي، ولكن سرعان ما أعود إلى سابق عهدي.

فات علينا أسبوع كامل، لا يكلم أحدنا الآخر؛ كيف يعرض عليَّ شيء كهذا؟ أنا لا أستطيع الذهاب للاستحمام، ليس بسبب الأطفال فقط، ولكن بسبب آخر لا أعرفه، أحس أنني مقيدة في مكاني؛ ما الذي حدث بداخلي؟ لا أعرف... لا أريد أن أرى أشخاصًا من عائلتي ولا من عائلته، ولا أريد رؤيته هو شخصيًا ولا حتى رؤية أطفالي!

هذه هي الحقيقة؛ لم أتعلق بهما ولم أفرح بقدومهما... رفضت أن أرضعهما من صدري بحجة أنني ضعيفة ولا أستطيع إرضاع الطفلتين؛ ولكني من داخلي لم تكن لدي رغبة باحتضانهما كل هذا الوقت.

لا أعرف ما هذا الشعور الغريب! ولماذا يراودني؟ كنت في الماضي عندما أرى طفلًا صغيرًا يبكي في الطريق ينفطر قلبي وأود أن أجري عليه لأحتضنه؛ ولكن الآن، أصبحت أكره الأطفال كلهم، ولا أتعاطف معهم؛ ماذا فعلوا حتى أكن لهم مشاعر الكراهية غير المبررة تلك؟ لماذا أعاملهم بتلك القسوة؟ لماذا لم أعد أحب رامي وأفرح بعودته؟!

أريد أن أتغير، ولكن لا أستطيع؛ رامي لا يشتكي مني، ويحاول أن يخرجني مما أنا فيه، ولكن دون جدوى؛ حتى عندما أشكو له من تغير شكلي يقول لي : فين الكلام ده؟ لسه زي القمر؛ وبعدين الكام كيلو دول ينزلوا في شهر واحد، تعالي ننزل نتمشى كل يوم بعد ما أرجع من الشغل، وناخد البنات معانا في العربية بتاعتهم، وشوفي هترجعي أحسن من الأول.

أرد عليه بنفاد صبر وأقول : أنزل أمشي إيه بس؟ هو أنا قادرة أتحرك! أنا ماعنديش طاقة لأي حاجة؛ كل اللي عايزاه أني أقعد لوحدي ساكتة وخلاص، ده أنا بعمل الأكل بالعافية، لولا بس أني ببقى عايزة آكل ما كنتش عملت أصلًا.

أرى الحزن ونظرات الخيبة في عيني رامي ولكني أتحاشاها؛ وأحاول من فترة لأخرى أن أتعامل معه بحب كالماضي حتى لا أفقده، وهو طيب القلب يستجيب سريعًا ويعود ممتلئًا بالفرح والحب بمجرد كلامي العادي معه.

تمر الأيام، لا أعرف كيف! ولكنها مرت... بناتي أتمتا عامهما الأول، أصعب عام في حياتي، تغير فيه كل شيء، من أول شكلي إلى شكل البيت الذي كان سعيدًا مرتبًا تملأه ضحكاتي، إلى بيتٍ كئيب مهمل تعلو فيه أصوات البكاء، وأصوات صراخي في الطفلتين اللتين لا تستوعبان ما هذا الصريخ؟ وما الذي حدث؟

كنت سأجن عندما تأخر حملي ستة أشهر فقط، وبعدما أنجبتهما وددت لو ابتلعتهما مرة أخرى لتحظى حياتي بهدوئها السابق.

لا أخاف من الفكرة، ولا أستغفر الله بعدما أفكر في هذا؛ فأنا أصبحت مؤمنة تمامًا بحرية كل فرد في حياته؛ أولادي ولا أريدهم... حياتي وأكرهها... ما الضرر الواقع على المجتمع من قراراتي الخاصة؟ لا أفهم.

في يوم من الأيام، رن جرس الباب على غير العادة؛ لأنني تقريبًا قاطعت كل من حولي، فقلما ما يرن جرس الباب إلا لو كان طلبًا من مطعم أو صيدلية، وأعرف به مسبقًا؛ نظرت من العين السحرية حتى أرى أي متطفل جاءني في هذا الوقت، ولم ييأس وظل يرن على الجرس، وأنا غير مهتمة لم أصدق ما أراه... فتحت الباب وأنا فرحة وأقول : لمياء! حبيبتي حمدًا لله على سلامتك، جيتي امتى؟

تحضنني وهي تقول : والنبي يا أختي فرحانة قوي أنك شوفتيني، ده أنتِ ما ردتيش عليّ بقالك يجي شهرين، وقبل كده كنت بتكلميني من غير نفس.

قلت لها : ادخلي بس وهحكيلك.

ظللنا نتكلم، لم أشعر بالوقت. منذ عام ونصف تقريبًا وأنا لم أشعر بالراحة التي وجدتها في وجود لمياء، فهي صديقة الطفولة وجارتي وزميلة الدراسة، وكل فترة شبابي ومراهقتي وطفولتي كنا معًا.

كنت سعيدة وهي تحكي لي تفاصيل خطبتها... كنت أعلم أنها تحب زميلًا لها في العمل، ومن فترة لأخرى تحدثني وتحكي لي، ولكني كنت أسمعها في الهاتف دون اكتراث؛ ولكن وهي أمامي الوضع مختلف، لم تتغير أحاديثها الشيقة.

رأت البنات وكانت فرحة بهما جدًا، وأخذت تعرض لي ما جلبته لنا من هدايا كثيرة... استأذنت منها وأدخلت البنات حجرتهما وعدت إليها حتى نكمل حديثنا، أو بالمعنى الصحيح حديثها، فهي عندما تتكلم وتدير الحوار لا أحد يستطيع إيقافها.

طريقتها في سرد كافة التفاصيل تبهرني دائمًا... قاطعتها وهي متحمسة كعادتها وقلت لها : قوليلي يا لمياء، أنتِ مش كنتِ رافضة الجواز؟ وقلتِ إنكِ عايزة تبقي أشهر مهندسة ديكور وتفتحي شركة كبيرة؟ وسافرتِ بره علشان تشتغلي وتحققي حلمك، إيه اللي غير رأيك كده؟ أنتِ آخر واحده كنت أتخيل أنها تتجوز وخصوصًا من حكايتك عنه، كنتِ بتقولي إن هو اللي معجب بيكِ وأنتِ مش في دماغك حاجة، إيه اللي حصل؟.

تضحك ضحكاتها العالية التي طالما تميزت بها وهي تقول : هو أنا يعني كنت هقولك إن الواد زي القمر وأنا اللي مدلوقة عليه! مش لازم أرسم نفسي شوية وخصوصًا أني كنت عاملة أدامك سبع رجالة في بعض، وبلومك أنك اتجوزتِ بدري، بس غصب عني هو بصراحة خلاني أغير فكرتي عن الجواز؛ وبعدين هو أصلًا قالي لازم أكمل شغل، وأحافظ على المستوى اللي وصلتله، وأكمل لحد ما نفتح الشركة اللي كنت بحلم بيها معاه.

أرد عليها في نفاد صبر، فقد أحسست بالملل وأود أن أجلس صامتة من جديد!

– طيب حلو قوي، ما دام متفقين على كده، نصيحة مني اوعي تفكري في الخلفة في أول جوازكم؛ ولا أقولك : الغي الفكرة دي خالص! مش عايزة أفاجئك وأقولك إني تقريبًا ما تجوزتش غير أول ست شهور اللي أتأخر فيهم حملي؛ أنا من ساعة ما خلفت وأنا حالتي زي ما أنتِ شايفة كده!

ترد عليَّ : مالك؟ ما أنت زي الفل أهو... يا شيخة! احمدي ربنا دول نعمة.

تنتبه فجأة وتقول لي : هما فين البنات أصلًا؟ أنا ما شفتهمش غير أول عشر دقايق وبعدين دخلتيهم الأوضة، وما لهمش صوت خالص، شكلهم هاديين وأنتِ اللي مفترية!

أنظـر إليهـا وأقـول : هـاديين جـدًا فعـلًا، ده أنـا أديـتهم دوا كحـة أول مـا أنـتِ جيـتِ علشان أعرف أقعد شوية معاكِ.

تنظـر إلـيَّ غيـر مصـدقة وهـي تقـول : حـرام عليـكِ! فـي حـد يعمـل كـده برضـه؟ غلـط علـيهم وهمـا لسـه فـي السـن ده؛ لـو أعـرف إن علشـان أقعـد معـاكِ هتعملـي كـده مـا كنتش جيت أصلًا.

تطلـب منـي بإلحـاح أن أطمـئن عليهمـا... أقـول لهـا وقـد نفـد صـبري حقًـا : أنـا كـده كده هدخل أنام جنبهم علشان تعبانة.

تشـعرها كلمـاتي بـالإحراج، فتتململ فـي جلسـتها وتقـول : أنـا كمـان اتـأخرت هبقـى أكلمك قبل ما أسافر، بس يا ريت تردي عليّ.

ابتسـمت لهـا ابتسـامة باهتـة وودعتهـا وأنـا أشـكر الله علـى انصـرافها، فمـا كـان فـي مقدوري تحمل بشر أكثر من هذا الوقت.

عـاد رامـي مـن عملـه بعـد سـاعتين، وحكيـت لـه أن لميـاء جـاءت لزيـارتي؛ فـرح كثيـرًا وقـال لـي : علشـان كـده بتتكلمـي، وحاسـس إن مزاجـك أحسـن، مـش قلـت لـك أنـتِ محتاجة تقعدي مع ناس أكثر.

قلت له : ولا مبسوطة ولا حاجة، ده أنا كنت بدعي ربنا إنها تمشي.

ينظر إليَّ نظرته المعتادة في الفترة الأخيرة، وينصرف كالعادة.

مر أسبوعان تقريبًا، وأتذكر ذلك اليوم جيدًا، دخل عليَّ رامي المنزل وجدني محمرة العينين وأثار البكاء على وجهي.

اقترب مني في خوف، وقال : مالك يا نور في إيه؟ بتعيطي ليه كده؟ في حاجة حصلت للبنات؟ ردي عليّ...

أنظر إليه وأنا لا أتكلم، ودموعي ما زالت تغطي كل وجهي، وجذبته من يديه حتى غرفة نومنا؛ فتحت درج الكوميدينو الملاصق للسرير، وأعطته اختبار الحمل الذي كان مزينًا بخطين لونهما أحمر مثل لون عينيَّ اللتين أرهقهما البكاء.

قال بفرح ممزوج بارتياح : بقى هو ده اللي مخليكِ عاملة مناحة؟ أنا قلت فيه مصيبة. يا شيخة حرام عليكِ وقعتِ قلبي.

وأخذني في حضنه وهو يمسح دموعي ويقبلني في جبهتي ويقول لي : ألف مبروك يا حبيبتي، ده أحلى خبر سمعته، أنا أصلًا كان نفسي نجيب أخ ولا أخت للبنتين! بس بصراحة كنت خايف أكلمك في الموضوع، بس الحمد لله جت من عند ربنا؛ أنا كنت طفل وحيد وما ليش أخوات وكان نفسي أعمل أسرة كبيرة.

لم أدعه يكمل كلامه، انتفضت من حضنه وأنا أدفعه، ولم أشعر بنفسي غير وأنا ألطم خديَّ وأقول له باستنكار : مبروك على إيه؟ على الخيبة اللي هبقى فيها؛ هو أنا قادرة على البنات والبيت لما كمان أحمل دلوقتي! البنات ما كملوش سنة

ونص، هعمل إيه لما أشيلهم لوحدي؟ ودخلت في نوبة بكاء هيستيرية كان اعتادها منذ أن ولدت التوأم.

يتحدث كثيرًا بترهات لا أريد أن أسمعها أصلًا، ويحاول أن يواسيني ويقول كلامًا كثيرًا مثل : إنهم سندنا حين نكبر، وأشياء كثيرة لا أتذكرها ولا تهمني؛ ولكني أتذكر جيدًا استياء رامي وخروجه من المنزل يومها دون كلمة.

رجع في وقت متأخر جدًا على غير عادته... افتعلت النوم حتى لا نتحدث، ولكنه لم يأتِ للتحدث من الأساس، لقد أخذ بعضًا من ملابسه وترك لي ظرفًا مغلقًا بجانبي؛ عندما تأكدت أنه غادر، فتحت الظرف لأجد فيه خطابًا، ولكن ليس كالخطابات السابقة التي اعتدتها.

كان مكتوبًا فيه كلمات بسيطة : سوف أغادر المنزل مدة يومين لتستريح أعصابي.

أهذا كل شيء؟! أخذت أقرأه مرة واثنين لعلني لا أرى الكلام جيدًا.

وبداخل الظرف ترك لي بعض النقود...

لم أكن أفكر في غيابه ورحيله بقدر ما أفكر فيما أصابني...

لم أنم في هذا اليوم حتى الصباح من التفكير والخوف مما سيحل بي بعد قدوم الطفل الجديد.

طوال اليوم كنت أبحث عن رقم زميلة قديمة، ولكننا لم نتحدث منذ فترة، وحتى لم تأتِ لعزاء أمي، ولكني سأتغاضى عن هذا الموقف الآن؛ فأنا في حاجة إليها.

اتصلت بها، تفاجأت بمكالمتي؛ فأنا منقطعة عن العالم الخارجي منذ ولادتي؛ هي طبيبة صيدلانية وبالتالي هي الوحيدة التي تستطيع أن تساعدني.

اعتذرت لي عن عدم قدرتها على المجيء لتقديم واجب العزاء في والدتي وقالت لي إنها كانت تستعد لزواجها في التوقيت نفسه.

دخلت في صلب الموضوع مباشرة، فلا توجد أحاديث مشتركة بعد حوالي سنة ونصف انقطاع؛ حكيت لها أنني مريضة جدًا بسبب مضاعفات حملي السابق، وأن فقرات ظهري لا تستطيع تحمل أي إجهاد وأعالجها، ويشاء الله أن أحمل في طفل ثالث، وذلك مستحيل لحالتي المرضية وطلبت منها أقراصًا للتخلص من الحمل؛ قابلت طلبي بالموافقة، فبعد قصة مرضي الطويلة تعاطفت معي جدًا.

حتى إنها أصرت أن ترسل شريط الدواء إلى البيت. وأخذت عنوان بيتي وأرسلت عامل توصيل، وأعطتني الإرشادات الخاصة بكيفية أخذ الدواء.

وقالت لي إن بعد أخذ الدواء سيحدث نزيف ويجب عليَّ الراحة بعدها.

أعطيت بناتي المنوم، ولكن بجرعة أكبر في تلك المرة حتى أستطيع الراحة بعد أخذ دوائي، حتى إن واحدة منهما استيقظت ولكني نومتُها مجددًا وتأكدت أنها استغرقت في نوم عميق.

يومان من النزيف الشديد والألم غير المحتمل، ولكني تحملت حتى أتخلص مما أنا فيه... لا أتذكر كيف مرت تلك الأيام، ولكن كان أمامي هدف واحد : أن أعود من جديد في حياة رامي ويعود هو الآخر لي وحدي، وأن تصبح حياتنا هادئة مليئة بالحب والضحكات مثلما كنا أول ستة أشهر.

سوف أحكي له عندما يعود عما عانيته من أجل أن يستمر حبنا وأن أصبح متفرغة له وحده ولا يشغلني عنه شيء؛ سأحكي له كيف جعلت البنات تنامان نومًا عميقًا هادئًا، كلما استيقظتا أعطتهما الدواء حتى يعود ويجد البيت هادئًا كما يحب.

***

أنهى قراءة المذكرات، وقد فات موعد نومه منذ ساعتين، ولكنه أراد أن ينهي ما بدأه؛ لم يستطع النوم في تلك الليلة، ظل يفكر والتساؤلات تملأ رأسه، لم يشعر إذا كان نام أم لا؟ فعندما استيقظ على صوت المنبه شعر أن رأسه بحجم الغرفة...

جلست سارة على طرف كرسيها في الشرفة، تحاول التقاط لحظة هدوء؛ لكن ضجيج السيارات في الشارع، ذلك الضجيج العنيد الذي لا يهدأ؛ كان يشق سكونها الهش كالأبواق المتعاقبة، محركات تتذمر وضوضاء تتسلل إلى أعماق رأسها بلا استئذان.

رفعت عينيها إلى السماء محاولة أن تجد في زرقتها ملاذًا، لكن شيئًا بداخلها كان يتحرك : دهشة صامتة، بل حنين غريب لمكان عملها! ذاك المكان الذي طالما شكت من صمته الثقيل، ورغم المعاناة التي يحملها المرض بداخلهم، كان للسكون معنى؛ لم يكن صمتًا مزعجًا، بل هدوءًا يحمل نوعًا من الاحترام، من التأمل ومن الاتزان... تبتسم لنفسها ساخرة من تناقضها؛ من كانت تهرب من الهدوء باتت الآن تشتاق إليه وسط صخب لا يرحم.

قطع تفكيرها صوت رنة هاتفها، فأفاقت من كل ما تفكر فيه وهي تنظر إلى شاشة الهاتف، ردت على هاتفها وهي تبتسم : مساء الخير يا دكتور.

دكتور نادر : مساء الفل يا سارة، مش عارف أقولك إيه! أنا ما نمتش من امبارح.

سارة : كنت متأكدة طبعًا، ومستنية تليفونك.

دكتور نادر : خلاص بكرة الصبح نتقابل، بس مش في العيادة، حددي مكان يكون مناسب نعرف نتكلم فيه.

سارة : تمام يا دكتور، فيه مكان أعرفه هادي، هسبق حضرتك وأبعتلك اللوكيشن، الساعة ١١ مناسب؟

دكتور نادر : مناسب جدًا، أشوفك الصبح إن شاء الله.

في الصباح تذهب سارة قبل موعدها إلى الكافيه، تدخل وتجلس بجانب النافذة الكبيرة المطلة على الشارع الهادئ، ونسماتٌ عذبة تتسلل إليها، ضوءُ النهار يغمر المكان بلطف؛ رائحة القهوة الطازجة المحببة إلى قلبها تعبق الأرجاء؛ تمتزج أصوات آلات التحضير الناعم ونغمات الموسيقى الهادئة التي بالكاد تسمع.

طلبت قهوتها وشربتها في استمتاع، ثم أرسلت للدكتور نادر اللوكيشن الخاص بالمكان؛ يأتي دكتور نادر في الموعد، تستقبله سارة بابتسامتها التي لا تفارق وجهها.

دكتور نادر : صباح الخير يا سارة، إيه المكان الجميل ده! طول عمرك ذوقك حلو.

سارة : المكان جميل بس علشان حضرتك موجود فيه... قهوتك إيه يا دكتور؟

دكتور نادر : لا، أنا شربت قهوتي أول ما صحيت، هشرب أي عصير... المهم خلينا نخش في الموضوع، بقولك أنا منمتش لما قريت المذكرات الثانية!

سارة : فعلًا يا دكتور، كمان أنا بالنسبالي كانت مفاجأة كبيرة مش علشان بس المذاكرات، الحالة كلها كانت غريبة جدًا... أنا استلمت الحالات بتاعة الدكتور وحيد، وحالة نور كانت من ضمنها... أنا تقريبًا مع نور بقالي أربع شهور؛ وزي ما قلت قبل كده الدكتور وحيد قالي إن فيه مذكرات بتكتبها دايمًا، وكان هو أخدها وحطها مع الملف بتاعها.

أنا هحكيلك بالتفصيل عنها : نور، في أوائل الثلاثينيات، بقالها في المستشفى أربع سنين، وتقريبًا من يوم ما دخلت ما بتتكلمش خالص غير كلمات غير مفهومة، حتى أحيانًا بتشاور، وكل اللي بتعمله أنها بتطلب كل فترة قلم وورق!

وماكنش في أي حد بييجي يزورها أو يسأل عنها، وطبعا هي جت المستشفي بعد ما المحكمة طلبت الكشف عن قواها العقلية، لأنها دخلت في حالة صدمة شديدة، ورفض تام للي عملته.

لما قرأت أول مذكراتها طبعًا فهمت إن عندها اضطراب انفصام الشخصية الحاد (Schizo Phrenia)، ومصحوب بأعراض ذهانية وانفصالية، بس كنت عايزة أعرف أو أحط إيدي على سبب حالتها دي من الأساس، وخصوصًا أنها رافضة الكلام تمامًا.

دكتور نادر : وطبعًا بعد ما قريت المذكرات الثانية فهمت ليه، حالتها دي نتيجة صدمة نفسية ناتجة عن اكتئاب حمل غير معالج، المريضة دي عندها انفصال

واضح عن الواقع، شفتِ كمية الشخصيات البديلة اللي بتتكلم عنها؛ وبتوصفهم وتوصف مواقف دقيقة ماحصلتش أصلًا، بمنتهى الدقة كأنها عاشتها فعلًا...

سارة : طبعًا يا دكتور فهمت كل ده لما قريت وفهمت أنها عانت اكتئاب ما بعد الحمل، وما تعالجش في وقته وماحدش خد باله ولا اتشخصت من الأساس؛ وخصوصًا إن والدتها اتوفت فعلًا قبل ولادتها تقريبًا، وده زود موضوع الاكتئاب عندها أكثر.

دكتور نادر : بس المذكرات الثانية دي أنتِ جبتيها منين؟

سارة : حضرتك مش هتصدق! جوزها اللي جابهالي من شهر تقريبًا في المستشفى، سأل عن الدكتور وحيد لقاه مسافر، وأنا اللي متابعة حالة نور، طلب يتكلم معايا.

دكتور نادر : طيب وماجابهاش من بدري ليه؟ إيه اللي خلاه يستنى أربع سنين؟

سارة وقد بدأ على وجهها ارتسام علامات الحزن : أهي حكاية نور وجوزها زي الأفلام وتقدر تقول الأفلام الهندي كمان.

بعد حادثة نور واللي عملته في ولادها، طبعًا جوزها بلغ عنها، وبعد ما اتقبض عليها هي كانت دخلت في حالة رفض تامة وإنكار للي هي فيه، وبعد عرضها على الكشف الطبي وحطوها تحت الملاحظة اتأكدوا طبعًا إنها مريضة.

تسكت فجأة للحظات وهي تتذكر رامي زوج نور وهو يدخل عليها مكتبها ويستأذن بالدخول، تتذكر جيدًا رعشة صوته الذي يحمل في نبرته قلقًا لا يعرف له اسمًا؛ كانت نظراته يومها ممتلئة بالحيرة، مزيجًا من الخوف والذنب.

كأنه يسأل نفسه : هل قصرت معها؟ هل تأخرت في علاجها من المرض الذي لم أكن أعرف أنه يضرب في داخلها ويجعلها تخوض صراعًا مريرًا سرق منها ملامحها وورحها شيئًا فشيئًا.

بدأ يحكي لي منذ البداية عن علاقته بنور، وكيف أصبح عندها أهم شيء في حياتها.

رامي : نور كانت رقيقة وجميلة ومن الشخصيات اللي تحبيها من أول ما تشوفيها، اتجوزنا وإحنا يا دوب زي ما بيقولوا معرفة صالونات، لكن بسرعة حسيت زي ما يكون دي الهدية اللي ربنا كان شايلها لي، اهتمام ودلع وحنية ما شفتش زيهم؛ فضلت ٦ شهور بحمد ربنا على إني اتجوزتها.

سارة : أنا مش هقاطعك تاني علشان شايفاك عايز تحكي، بس عايزة أسألك سؤال اشمعنا بتقول ٦ شهور بس اللي كنت مبسوط فيهم؟

رامي : يعني أنا بقول ٦ شهور، علشان حصلت أحداث كتير أول ٦ شهور، ما كنش لسه حصل حمل، هي كانت قلقانة شوية، بس بصراحة أنا كنت حاسس إن

لسه بدري ومفيش مشكلة، لحد ما حصل حمل وفرحت جدًا وهي كمان؛ بس جه تعب مامتها ووفاتها وتعبها في الحمل لخبط كل حاجة وخلاها واحدة تانية، وابتدت تبقى زعلانة أكثر الوقت، وعصبية ومش عايزة تشوف حد.

صمت للحظات كأنه لن يستطيع الكلام أو كأنه لا يريد تذكر ما حدث؛ بعد فترة من الصمت الثقيل تحدث ثانية، وهو يضع يده على رأسه كمن بات يحمل بداخله كل أحزان الدنيا.

رامي : في يوم وليلة حياتي اتقلبت، ولادي ماتوا ومراتي اتجننت، وكمان هي اللي عملت فيهم كده! أنا وقتها كنت زي اللي بحلم، مش فاهم امتى وليه حصل كل ده! ويحصلي أنا ليه؟ بالذات ليه؟ من دون البشر كلها! أنا مش قد اللي حصل لي ده. وما افتكرش إني ممكن أتخطاه في يوم من الأيام... أصحابي وقفوا جنبي بصراحة، وأهلي كمان، وكلهم كانو بيدوروا ليا على شغل بره لأن الحل إني أبعد عن هنا بكل الذكريات والتفاصيل اللي مرت عليّ.

سارة : طيب إيه اللي رجعك تاني؟ أنت حسيت بالوحدة وأنت مسافر ولا إيه!

رامي : لا، وحدة إيه يا دكتورة؟ ما كده كده هبقى في أي حتة وحيد؛ بس أنا كنت نازل أبيع الشقة، لإني لما بنزل إجازة ما بقدرش أدخلها طبعًا، فقلت أشتري واحدة تانية في مكان بعيد حتى لو هخسر، بس المهم إني ما أدخلهاش تاني؛ بس دخلتها مرة أخيرة، وأنا بلم حاجتي الباقية، لقيت الدفتر ده بتاع نور، كانت مخبياه في درج

صـغير مخفـي كـده جـوه الـدولاب... لمـا فتحتـه وقريتـه صـعبت علـيّ قـوي، مـع إنهـا معترفة بكل حاجة بالتفصيل.

كـان يتحـدث بينمـا دموعـه تنـزل مـن عينيـه ولا يمسـحها، كأنـه يريـد أن تغسـله مـن آلامه وتطهره من ذنب لم يقترفه.

لـو كنـت فهمـت حالتهـا، كنـت عالجتهـا مـن الأول ومـا كـنش وصـل بينـا الحـال للـي إحنـا فيـه... لـو كنـت أعـرف مـا كنـتش بقيـت سـلبي كـده، وعلـى طـول سـاكت ومـا بكلمهـاش كـإني بعاقبهـا إنهـا تعبـت؛ "**كـل اللـي عملتـه ده علشـان نرجـع لـبعض تـاني**" ده آخر سطر كتبته في مذكراتها.

تنتبـه سـارة للـويتر وهـو يضـع العصـير علـى الطاولـة، وتنظـر إلـى الـدكتور نـادر وعيناها تحجر بها الدموع، ولكنها لا تريد أن تنزل.

يلاحـظ الـدكتور نـادر حزنهـا فيـتكلم : يـا دكتـورة سـارة أنـتِ لسـه صـغيرة ويامـا هتقـابلي وتشوفي حالات كده وأكتر.

سـارة : عارفـة وفاهمـة ده كـويس، الموضـع مـش تـأثر بحالـة الموضـوع كـدكتورة، تـأثري بحالـة نـور كـأم؛ كنـت عارفـة قصـتها وإنهـا هـي اللـي عملـت كـده فـي ولادهـا، لكـن صـمتها الزائـد وهـدوءها؛ بـس كنـت بقـول يمكـن حاجـة حصـلت تانيـة، أو فـي سـر فـي

الموضـوع، لكـن لمـا قـرأت المـذكرات الثانيـة، اتأكـدت... بـس برضـه تعاطفـت معاهـا علشان هي ما عرفتش إيه إلى بتمر بيه ولا اللي حواليها!

دكتـور نـادر : سـارة! كـل اللـي بنقـدر عليـه بنعملـه، واللـي نقـدر عليـه إننـا نحـاول نعـالج الحـالات اللـي معانـا، أو علـى الأقـل نخلـي حالتهـا مسـتقرة ومـا يحصـلش ليهـا انتكاسـة؛ وبعـدين أنـتِ حطيتـي إيـدك علـى سـبب تعـب نـور الأساسـي، وكـده هيبقـى علاجهـا أسـهل لإنـك عارفـة السـبب؛ أنـتِ تقـدري تـزودي الجلسـات معاهـا حتـى لـو متكلمـتمش معـاكِ وده طبيعـي فـي حالتهـا دي، أنـتِ ممكـن تشـغلي موسـيقى هـي كانـت بتحبهـا، وممكـن كمـان بمـا أنهـا متعلقـة بموضـوع الجوابـات تخلـي رامـي يكتـب لهـا جـواب وتشوفي رد فعلها، أنا متأكد إن ده هيفرق معاها كتير.

سـارة وهـي شـاردة : أنـا مـش عارفـة المـذكرات التانيـة دي ادتنـي بصـيص للأمـل، ولا بصـيص يـأس، نـور بالنسـبة لـي مبقـتش مجـرد ملـف ومـذكرات، نـور بقـت روح محاصرة داخل جسد.

" كـل سـطر فـي مـذكرات نـور كـان يغـرز مسـمارًا جديـدًا فـي قلـب سـارة، لـم تكـن تقـرأ تاريخًـا مرضـيًا فحسـب، بـل كانـت تغـوص فـي روح تصـرخ، وتتـابع كيـف تحـول الحـب إلـى كـابوس، والوداعـة إلـى جنـون... كانـت تشـعر بغضـب عـارم تجـاة جهـل المحيطـين بنـور، وعـدم قـدرتهم علـى رؤيـة الشـرخ الـذي بـدأ يتسـع بـداخلها " كيـف فـات كل هذا؟

" همست لنفسها، بينما كانت صفحات الدفتر ترتجف بين يديها، ليس من ضعف ورقها بل من قوة الصدمة التي هزت كيانها كطبيبة وإنسانة "

سارة : أنا هحاول يا دكتور أكشف معاها الجلسات وكمان كنت بفكر إني أخلي رامي يزورها مرة، بس أنا خايفة إن يحصل لها انتكاسة أكبر، رأيك إيه لو عملت كدة؟

دكتور نادر : لا، أجلي زيارة جوزها دي دلوقتي، هي أصلًا منفصلة عن الواقع وبتتكلم عن إن جوزها ميت من سنين، مش معقول يظهر فجأة كدة!

***

{ بعد عدة جلسات مع نور }

كانت تحاول أن تقترب منها أكثر وأكثر، في لحظات وعي بسيطة من نور كانت تهمس باسم سارة، وهي تنظر إليها كأنها لا تتذكرها!

ولكن كانت سارة تعلم جيدًا من المقصودة، هي سارة أخت رامي كما قرأت في المذكرات.

اعطتها خطابات من رامي لتقرأها، وترى مدى تأثيرها عليها لكن دون جدوى، كانت تقرأهم وعلى وجهها ابتسامتها الوديعة، ثم تعود لشرودها من جديد...

ذات يوم، في إحدى جلساتهم الصامتة، أعطت سارة لنور دفتر مذكراتها الثاني...

أمسكته نور في عدم اهتمام ووضعتَه جانبها، كأنها لا تراه أو لا تريد أن تراه...

أمسكته سارة وبدأت تقرأ لها بصوت هادئ : لا أعرف ما هذا الشعور الغريب ولماذا يراودني؟ كنت في الماضي عندما أرى طفلًا صغيرًا يبكي في الطريق، ينفطر قلبي وأود أن أجري عليه لأحتضنه، ولكن الآن أصبحت أكره الأطفال كلهم، ولا أتعاطف معهم.

ولأول مرة رأت سارة نظرة الجنون بداخل عين نور، خطفت منها الدفتر وهي تنظر إليه غير مصدقة، تخرج منها صرخة مكتومة لم تكتمل، ثم تنهار! تهوي على الأرض كما لو أن السماء قد انطفأت في عينيها، تتكسر أطرافها كدمية من الخزف، وتتناثر أنفاسها كأنها تحمل في صدرها ألف حكاية مكسورة؛ لم يكن سقوطًا عاديًا، بل كان استسلامًا صامتًا لوجع لم يعد يُحتمل، سقوطًا يحمل في طياته ثقل كل ما لم يُقل، وكل ما أُجبر القلب على ابتلاعه.

{ بعد عدة أيام }

لم تنجح، رغم كل المحاولات... لماذا لم تنجح رغم الجلوس لساعات تستمع إلى صمتها، وتقرأ ما وراء كلماتها؟

شيءٌ ما انكسر بداخلها؛ أحيانًا ينكسر المعالج قبل أن يشفي المريض.

بينما كانت تودع ملف نور ومذكراتها لزميلها الدكتور مجدي، نظرت إلى المبنى من الخارج، فوجدتها خلف الزجاج المتسخ والقضبان الحديدية، لم تكن تبتسم كعادتها، ولا تتحدث إلى الفراغ... فقط شاردة!

لم يكن شعور سارة بالهزيمة، بل بالتعلم العميق... كانت تجربة نور قاسية، ولكنها كشفت لسارة حدود قدرتها كإنسانة، وألقت الضوء على ضرورة حماية ذاتها لكي تتمكن من العطاء.

لم تكن سارة تفر، بل كانت تتراجع لتعيد ترتيب ذاتها...

قرارها لم يكن اعتزالًا، بل وقفة تأمل، سباق مع الزمن لاستعادة ما تعلمت أنها لا تمنح، بل تصنع من الألم؛ لكنها وعدت نفسها، وقالت : ربما أعود يومًا أكون فيه أقوى، أفهم أكثر، أو على الأقل أكون قادرة على مواجهة الألم دون أن أذوب فيه.

***

القصة الثانية

أخطر مما يبدو

بسم الله الرحمن الرحيم

مــن وراء الشــباك، دائمًــا أرى العــالم الحقيقــي، أرى مــا لا يــراه غيــري؛ أختفــي عــن أنظــار الجميــع، ولكنــي أراهــم جيــدًا؛ عنــدما أختفــي وراء الشــباك، أرى النــاس علــى طبيعتهم، يتصرفون بعفوية لأنهم لا يعلمون أنني أراقبهم!

كل فترة من الزمن يصبح لي أبطال من شارعي، أنسج لهم قصصًا وأعطي كل فرد منهم دورًا، أقصها على نفسي وأعيش معهم داخل عقلي من وراء الشباك!

دعوني أعرفكم على أبطالي الجدد :

{ نجيب، السيدة الحسناء، العاشقان الصغيران، فاطمة والشاب الوسيم }

أتمتــع بمراقبــة عــم نجيــب، فهــو أكثــر أبطــالي تســلية؛ أحــب نظراتــه علــى النســاء، ومحاولتــه ابــتلاع كرشــه كلمــا مــرت سيدة أمامــه، هــو رجــل محــب للنســاء، أو بمعنــى آخر، راجل ناقص...

أرى نظــرات عــم نجيــب صــاحب الســوبر ماركــت علــى مفــاتن الســيدة الجميلــة، وأرى نظراتهــا المتســاهلة وهــي تتصــنع الــدلال وتطيــل الحــديث معــه، وهــو يُلقــي بنكاتــه السخفية، فتضحك ضحكة زائفة على ثقل دمه، لكنها تتحمل لغرض في نفسها.

كان ثقيلًا في تعليقاته، يتكور خلف الكاشير كأن المكان كله يدور حوله.

كانت تدرك إعجابه بها، وتعرف أن ثقل ظله ليس إلا محاولة غير متقنة للفت الانتباه.

تبتسم له ابتسامة واسعة، فيها شيء من البجاحة اللطيفة التي لا يمكن لأحد أن يغضب منها، كانت تعرف تأثره بها وتستمتع بذلك على طريقتها.

أما هو، فكان يشعر أنه أمام إعصار من الدلال، لا يعرف كيف يواجهه، كل ما يعرفه أنه لا يريدها أن تخرج من الباب.

أرى السيدة فاطمة، التي لا تخرج من منزلها إلا نادرًا، وهي توصل أبنائها أحيانًا؛ مظهرها الوقور وحديثها الهادئ وابتسامتها الخفيفة جعلوا الجميع يظنون أن صفحتها بيضاء لا تعرف الالتواء.

لكن داخل البيت، خلف الستائر الثقيلة التي لا تُرفع إلا نادرًا، كانت هناك امرأة أخرى... امرأة تعيش صراعًا مكتومًا بين ما تظهره للناس وما تُخفيه عن نفسها.

زوجها يغادر إلى عمله، وأطفالها يرافقونه إلى المدرسة، وبمجرد أن يغادر آخر صوت من أصواتهم ويُغلق الباب... يُفتح باب آخر.

ذلك الشاب الوسيم الذي يأتيها لا يعرف عنها إلا تلك النسخة التي لا يراها أحد.

خطواته السريعة إلى داخل منزلها لم تكن مجرد زيارة، بل كانت إشارة إلى حياة أخرى تبنيها في الخفاء.

أرى الفتاة الجميلة التي تلفت أنظار الشارع وهي تمشي في استحياء، وبعد دقائق يتبعها شاب في نفس عمرها، وكأن كل شخص ذاهب في اتجاهه، ولكني أنا الوحيد الذي يعرف الحقائق، فمن يراقب في صمت يعلم جميع التفاصيل.

والآن دعوني أروي لكم حكايات شارعنا!

في الصباح، حوالي الساعة التاسعة، يدخل شارعنا شاب وسيم متأنق، وجهه وشعره يلمعان؛ هذا ما لفت نظري إليه... من الذي يخرج متأنقًا هكذا في هذا الوقت؟

لو كان شابًا عاديًا ما التفت إليه من الأساس... شاب طويل، جسده يميل إلى النحافة، ذو شعر أسود ناعم وشارب خفيف، يلبس دائمًا ملابس كلاسيكية. أتابع دخوله من أول الشارع واثق بنفسه كمن ذاهب لفتح عكة!

تبدأ خطواته في الثقل عندما يقترب من العمارة التي اعتدت رؤيته يدخلها؛ أصبحت أحفظ حركاته عن ظهر قلب، ينظر في ساعته، ثم ينظر نظرة خاطفة إلى أعلى، يلعب في شعره، ثم يدخل إلى العمارة...

في الساعة التاسعة إلا ربع، في الأيام التي يأتي فيها، أرى السيدة فاطمة تقف مع البواب، وتعطيه ورقة للطلبات، ولا تصعد إلا عندما تراه يغادر!

كل هذا لم يكن كافيًا حتى أربط علاقتهما، ولكن حدث شيء جعلني أتأكد.

فاطمة تنتظر البواب لكنه غير موجود، ظلت تنتظره حوالي عشر دقائق لكنه لم يأتِ، تصعد مسرعة؛ رأيتها تقف في شرفتها وهي تتطلع إلى أول الشارع بترقب وقلق؛ يظهر الشاب فتتلفت حولها لتتأكد أن لا أحد يراها، تمسك بهاتفها، ولكن يظهر على وجهها الاستياء والقلق أكثر؛ تنزل الهاتف من يديها وتشير له بيديها أن ينصرف، فيحك الآخر أنفه ثم ينظر في ساعته مدعيًا الانشغال، ثم يغير مساره ويذهب إلى الشارع الرئيسي مرة أخرى.

من يومها، تأكدت من علاقة فاطمة والشاب الوسيم، وأصبحت أنتظر زيارته وأحسب ساعتهما معًا، بل وأسرح بخيالي لساعات وأنا أتخيلهم : هل هي ذات شعر ناعم طويل أم شعر مموج غجري؟ ساعات من العذاب اللذيذ تنتهي براحة لي ولهم!

أشعر أني رأيت هذا الشاب من قبل، ولكن لا أتذكر أين؛ أتذكر أني رأيته، لكنه كان أصغر سنًا، هو الآن في بداية الثلاثينات... ذاكرتي لا تسعفني، ولكن أقسم أني رأيته من قبل!

الفتاة الجميلة ها هي تخرج من الشارع حاملة حقيبتها على ظهرها، ويتبعها فتى بعدها بخطوات في نفس عمرها، تمشي دائمًا في خجل، تتحاشى النظر في أعين الناس كأنها تخشى أن يُفضح أمرها؛ تمشي مشيتها السريعة المعتادة، ومن ورائها زميلها؛ لا أحد يلاحظ خروجهم معًا غيري.

في تمام الساعة الرابعة يرحلون ويعودان بعد ساعتين لا أكثر.

عندما يرحلون ويبتعدان عن الشارع وأعين الناس، أراهم في خيالي متشابكي الأيدي، وعلى وجهها نظرة الخجل المعتادة... يجلسان معًا على النيل، يهمسان بحب عن تفاصيل حياتهم وخططهم المستقبلية، يختارون أسماء أبنائهم بعناية دون الاختلاف.

يمشيان سويًا بصمت، ولكنه مليء بالكلام، يداعب خصلات شعرها في حنان وهي تنظر إليه بحب؛ أحيانًا عندما يتوفر معه مبلغ من المال، يدعوها لنزهة نيلية على مركب بسيط، ليقضوا وقتًا بمفردهم بعيدًا عن أعين الناس، مكان لهم وحدهم لا يراهم أحد غيري.

اليوم تشاجروا قليلًا لأنه لم يخرج خلفها كالمعتاد وتأخر عليها؛ ما لا تعرفه أنه يمر بظروف هي التي منعته من القدوم في ميعاده، ما هي تلك الظروف وما الذي يخفيه عنها طالما تعاهدا دائمًا على البوح بكل شيء!

تسألوني كيف أعرف كل هذه التفاصيل؟ أراها في عيونهم الخجلة، في خطواتهم المتلاحقة، في أحلامهم التي كانت يومًا أحلامي...

في الشارع المزدحم أرى السيدة الجميلة التي ترتدي دائمًا ملابس سوداء، ولكنها تجعلها أكثر جمالًا وغموضًا، شعرها الناعم ينسدل من تحت طرحتها بتعمد

واضـح، تكـاد تلمـس الأرض مـن خفتـه عليهـا؛ لا أعـرف اسـمها، ولكنـي أطلقـت عليهـا اسـم " **حسـناء** "، فهـي حسـناء الطلـة ينشـرح قلبـي لرؤيتهـا، مثـل عـم نجيـب صـاحب السـوبر ماركـت، عنـدما يراهـا قادمـة مـن بعيـد يعتـدل فـي جلسـته ويهنـدم ملابسـه فـي محاولة منه أن ينال إعجابها.

يبتسـم ابتسـامة عريضـة ويهتـف موافقًـا عنـد اقترابهـا، تحيتـه فـي دلال كالمعتـاد، وتـدخل لتشتري احتياجاتها.

أراهـا وهـي تخـرج النقـود مـن صـدرها، ولكـن عـم نجيـب يمسـك يـدها التـي علـى صـدرها ويـرفض؛ تنظـر إليـه معاتبـة وهـي تضـع النقـود التـي لـم تخـرج بـدلال زائـف، فهـي تعلـم ماذا تفعل.

أعرف من مكاني ما يدور بينهم، وأتخيل حوارهم بالكامل...

حسـناء : لا يـا سـي نجيـب، أنـا كـده مـش هجـي عنـدك تـاني، ولا عـدت أشـتري منـك حاجة.

نجيـب : بقـا ده اسـمه كـلام يـا سـت السـتات! هـو ينفـع آخـد منـك فلـوس؟ ده أنـا والمحـل كلـه تحـت أمـرك، أنـا الـود ودي أجيبلـك الحاجـة لحـد البيـت، بـس أنـتِ اللـي مـا بترضيش.

حسناء : لا ميهُنش عليا تعبك، أنا لما بعوز حاجة بجيلك بنفسي أهو، ولا أنت مش عايز تشوفني بقا؟

نجيب : هو أنا يومي بيحلى غير لما أشوفك، بس ما تطوليش الغيبة عليا يا قمر، ربنا يقرب البعيد.

تضحك وهي مغادرة، وتعد بلقاء قريب...

هؤلاء أبطال حكايتي، أما أنا فحكايتي بدأت منذ أن انتقلت.

انتقلت إلى هذا الحي منذ أربع سنوات تقريبًا بعد حادثة حدثت لي، وكان يتوجب علينا أن نبحث عن شقة في دور أرضي لأن حالتي الصحية لم تعد تسمح بصعود أي سلم، وحالتنا المادية لم تسمح بالسكن في بناية جديدة بمصعد، فكان هذا البيت مناسبًا.

لم أكن يومًا راغبة في الحديث عما جرى، ليس لأني أخجل منه، بل لأنني تعلمت أن بعض الأشياء تفقد معناها حين تُقال.

الحادثة التي غيرت حياتي... نعم حدثت، تركت أثرها في كل شيء... في نظرتي للعالم، في تلك المسافة الخفية التي صرت أضعها بيني وبين العالم؛ لكن نوع الحادثة؟ تفاصيلها؟ لن يعرفها أحد...

أُدرك فضولهم، تلك النظرات التي تطولني كلما لمحوني خارج المنزل.

يعرف بعضهم أنني أخفي مأساة؛ كفاني حديثًا على نفسي، سأعود من جديد إلى أبطالي...

نجيب البقال يخاف من السرقة كثيرًا، لديه أزمة ثقة في كل من عمل لديه، أتذكر مشجراته العديدة معهم وانتهى بطردهم، لذلك لا يوظف أحدًا لمساعدته، يقف بمفرده تمامًا، وأحيانًا يساعده ابنه عندما يعود من المدرسة.

يستيقظ صباحًا ليتفقد أحوال الشارع، لعل تظهر له قصة لا يراها غيره.

لاحظت شيئًا، الفتاة لم تعد تخرج في موعدها المعتاد، انتظرتها كثيرًا، لم أعد أراهم يخرجون وراء بعضهم كما تعودت؛ أراها أحيانًا تمشي وحيدة، لم تعد تمشي سريعًا، لم تعد تتحاشى أعين الناس، أراها تنظر في وجوههم علها تجد حبيبها!

كنت عندما أراهم متتابعين أشعر أنها سعيدة، لكن الآن تبدل شيء بها، لا يوجد حزن ظاهر، ولكني أرى فراغًا خفيفًا يحيط بها... فراغ يشبه المقعد الفارغ في مقهى أعتاد استضافة شخصين وصار يستقبل شخصًا واحدًا فقط...

ياترى ماذا حدث بينهم؟ هل تشاجرا لسبب ما؟ أين ذهب الفتى؟

ظللت أنتظرهم يوميًا بدون فائدة!

في يوم من أيامي المعتادة، كنت جالسًا أنظر على الشارع، ولكن كان الوقت متأخرًا، وجدت الفتى يغادر الشارع وهو يحمل حقيبة سفر متوسطة الحجم، من الواضح أنه مغادر أو مسافر إلى مكان ما؛ ولكن أين كان الأيام الماضية؟

الآن قد خسرت بطلًا من أبطال حكاياتي، كانت قصتهم المفضلة لدي، كنت أتذكر قصة حبي عندما أراهم... لكن هل هم أفضل مني؟ فأنا أيضًا قصتي لم تكتمل؛ من منا قصته اكتملت من الأساس!

بعد أيام ظهر شيء أظن أنه سيشغلني وينسيني حكاية العاشقان الصغيران...

كنت كالعادة أقف في شباك غرفتي بعد نزول أمي لشراء الطلبات، وجدتها تقف مع السيدة الجميلة " حسناء "، كما أطلقت عليها، تتحدث معها وكان يظهر على وجه أمي التأثر؛ طال حديثهم وأنا أراقب بلهفة وأنتظر عودة أمي من الخارج بفارغ الصبر، حتى أعرف من هي وما قصتها ولماذا تواسيها أمي بهذا التأثر.

ولكن تواجهني مشكلة أكبر : أنا وأمي علاقتنا تعتبر شبه منعدمة، حديثي معها لا يكتمل، فأنا غاضب منها منذ سنين، منذ وقوع الحادثة، حتى عندما تساعدني في أي شيء أشكرها بكلمة واحدة وأدخل إلى غرفتي من جديد... ستعرفون فيما بعد سبب غضبي، ولكن الآن سأنتظر قدومها وأفتعل أي شيء حتى أعرف ما كان يدور بينها وبين حسناء.

أنتظرتها من وراء شباكي حتى أنهت كلامها، واتجهت لشراء ما تريد... عند رؤيتي لها قادمة، خرجت من غرفتي ووقفت أمام باب الحمام، عند سماعي لدخول المفتاح في الباب فتحت باب الحمام وانتظرت حتى تدخل.

أمي : إيه يا حازم، اللي قومك لوحدك؟ مش تستناني؟

أنا : ما أنا معرفش أنتِ فين، وبعدين ما قلتليش وأنتِ نازلة؟ وأنا مزنوق، قلت أجرب ورزقي على الله.

أمي : طيب الحمدلله أني لحقتك، وبعدين يعني أنت لما بقولك نازلة ما تردش عليا أصلا.

أنا : طيب حصل خير، ساعديني بقا أدخل.

شعرت مني بقبول في الكلام، فقالت لي أمي : طيب استني هنا، أنا مخلصة الأكل، نقعد نأكل لقمة مع بعض أنا مش فاكرة آخر مرة قعدت معايا إمتى!

أجبتها بإيماءة من رأسي تدل على الموافقة؛ موقفي منها لم يتغير، ولكن فضولي كان أكبر من أن أعترض.

جلسنا معًا، وأخذت تتحدث كثيرًا عن أخواتي البنات وأزواجهم، حديث طويل لا أهتم به؛ أجيبها مرة بهزة رأس، ومرة بابتسامة باهتة، حتى قاطعتها قائلًا :

أنا : أه صحيح، وأنا مستنيكي لما تأخرتي طلعت أبص عليكِ من الشباك، لقيتك واقفة مع واحدة كده وبتتكلموا كتير، لحد ما زهقت ودخلت... هي مين الست دي؟

كأنها سعدت أني من بدأت بالكلام، فقالت أمي : يعيني عليها، دي صباح، ست غلبانة وأرملة، جوزها مات من سنتين وكان نقاش بس كان معيشهم كويس،

وعندها ولد وبنت، وأهل جوزها طبعًا مش سائلين فيها وبيقولولها : أنت عندك راجل قعديه من التعليم وخليه يشتغل، بس هي مرضيتش أبدًا ده ابنها دلوقتي في سنة تانية كلية، بقت تفصل ملايات وتبيع، تجيب هدوم وتبيع أي حاجة تعرف تمشي نفسها؛ بس اللي قهرها ابنها، اتخانق معاها خناقة كبيرة أوي، هو طول لسانه عليها وقالها كلام زعلها أوي، بتقولي محستش بنفسي غير وأنا نازلة على وشه بالقلم.

طبعًا الواد مستحملش وساب البيت ومشي، وهي هتتجنن من ساعتها.

أنت عارف أصلًا سبب خناقتهم إيه؟ جالها واحد عايز يتجوزها ويشيل عنها الحمل اللي هي مبقتش قادرة تشيله.

وقالها : مصاريفك أنتِ وولادِك عليّ.

والنِبي دي فيها حاجة؟ الست لسه صغيرة وزي القمر، وهو لا عيب ولا حرام؛ عيال جاحدة، مفتحوش بقّهم لما أمهم كانت مترمّطة هنا وهنا علشان تصرف عليه هو وأخته، لكن عمل راجل قوي لما جالها واحد يصونها ويريّحها.

ابتلعتْ كلمتها، فأنا أعلم جيدًا أنها تقصدني أنا بالجحود، وقلت لها : مين اللي عايز يتجوزها؟

ردّت سريعًا : نجيب صاحب البقالة الكبيرة اللي على أول الشارع، ما أنت عارفه.

– أيوة أيوة عارفه؛ هو لسه متجوز فاطمة اللي في العمارة اللي قدامنا، صح؟

ترد أمي سريعًا : أيوة، دي فاطمة دي مراته التانية، هو راجل عينه فارغة باين عليه... بس بصراحة فاطمة دي صعبانة عليّ، الست في حالها ومحدّش بيشوفها، كل الشارع بيحلف بأخلاقها...

كانت الكلمات تتدفق منها بثقة، كأنها تعرف كل الخفايا وكنت أسمعها بصمت ثقيل، لا أُهز رأسي موافقة ولا أعترض، فقط اكتفيت بالهدوء الذي يخبّئ وراءه عاصفة... أعرف حقيقتها كاملة؛ الوجه الذي لا يراه الناس، التفاصيل التي تُطفئ كل ما يقال عنها من فضائل.

قاطعتها فجأة : طيب أنا تعبت وهدخل أستريح في أوضتي شوية؛ كنت قد أخذت ما يكفيني من معلومات، وأريد أن أتعرف على أبطال قصتي من جديد!

استنى بس اقعد معايا شوية، أنت عارف إحنا مقعدناش مع بعض بقالنا قد إيه؟

قلت وأنا أتحرك لحجرتي : آه عارف... أنا عمري ما نسيت!

استسلمت لقراري في حزن؛ كنت أرى الفرحة في عيونها وأنا جالس معها، وأيضًا لمحت دموعها المتحجرة وأنا أتركها.

هل أخبرتكم عن سبب خلافي مع أمي سابقًا؟ ... لا يهم، سأخبركم لاحقًا.

عدتُ إلى غرفتي من جديد، كلام أمي أضاء في رأسي أشياء، وبدأت أجمع بعض الخيوط، ولكني لم أتأكد بعد؛ لم أراقب أحدًا في هذا اليوم، أريد أن أفكر فيما أفكر فيه وحدي!

نجيب يحب السيدة الجميلة ويريد أن يتزوجها، فاطمة بتخون نجيب مع الشاب الذي يأتي بين الحين والآخر، العاشقان الصغيران لا يظهران بعد ذهاب الشاب الصغير الذي أكاد أن أجزم أنه ابن عشيقة نجيب!

ترابط غريب بينهم، والقاسم المشترك حتى الآن الخيانة والحب.

في صباح اليوم التالي، استيقظت متأخرًا... أعددت لنفسي كوبًا من القهوة، كانت باردة... لماذا؟ أتركتها كثيرًا وأنا أتابع حركات الناس وعيناي لا تتوقفان.

رأيت الشاب الوسيم يخرج من العمارة، كان يخرج مسرعًا خوفًا، ولكن عندما ابتعد عن العمارة، مشى بهدوء كأنه لم يكن يفعل شيئًا، كأنه لم يدنّس فراش عم نجيب ويطعنه في رجولته مرارًا ومرارًا.

وفجأة تمر الفتاة الشابة، شعرها منسدل، ترتدي فستانًا أصفرًا بسيطًا، وتحمل كتابًا بيدها، تمشي بخطى هادئة كأنها تملك وقت العالم كله؛ توقفت عيناه عندها، وظل واقفًا ينظر إليها كأنها مرت من حلم قديم نسيَه، أو من حياة لم يعشها بعد...

أما هي فقد لمحت نظرته، لم تعطه اهتمامًا، لكنها أبطأت خطواتها لحظة قصيرة ثم أكملت طريقها، كأنها تقول له : لستَ لك.

أراقبهم من خلف شباكي وأنا أقول في نفسي : هذا الشاب يريد كل شيء؛ يا له من طماع؛ جسد فاطمة المباح له أي وقت، والآن يريد الحب مع العاشقة الصغيرة.

كنت أكرهه بدون سبب، لسببٍ ما في داخلي عندما أراه، وكل مرة أراه فيها أحلف أني أعرفه... ولكن لا أتذكر.

أصبح يتردد على الشارع كثيرًا ولكن دون الصعود إلى فاطمة؛ أراه مرة يتمشى في الشارع ومرة يقف يتحدث مع صاحب محل قطع غيار السيارات، يقف على قمة الشارع أحيانًا بالساعات لا يفعل شيئًا... يراقب فقط.

أصبح كرهي غير المبرر له يتضاعف، كان هذا دوري أنا... أن أراقب.

بعد عدة أيام، رأيته ينزل من سيارته ومعه ثلاثة أو أربعة أفراد؛ لم أنتبه إليه ولا لمن معه، كل ما لفت نظري سيارته... أنا أعرفها، أعرفها جيدًا تمامًا كما أعرفه!

***

قبل أربع سنوات...

كنت شابًا في العشرين من عمري، أمشي بثقة أحلم بلا حدود، أركض نحو مستقبلي كمن يلاحق الفجر... حتى جاء ذلك اليوم؛ كان الطريق هادئًا، والسماء صافية، لا شيء ينذر بأن الحياة على وشك أن تتغير.

ثم... صدمة

صوت معدن يتكسر، جسد يتطاير، وصرخة انحبست في صدري؛ أفقت بعدها في سرير أبيض بارد، وحولي وجوه باهتة وعيون دامعة.

لم أكن أشعر بشيء... لكن في لحظة، وأنا أتحسس قدمي التي لا أشعر بها، جاءت الكلمة كطعنة في القلب : **فقدتَ قدميك**

سكت العالم... كل شيء بعد تلك الجملة تغير : الشوارع، المارة، المرايا، أحلامي... حتى أنا لم أعرف نفسي من بعدها.

حتى جاء هذا اليوم وأنا جالس كعادتي –فأنا لا أستطيع فعل شيء غير الجلوس– رأيت السيارة في الخارج ؛ نفس اللون؛ نفس العلامة على الباب الخلفي؛ نفس الكابوس...

تجمد الدم في عروقي، الذاكرة فتحت أبوابها دفعة واحدة؛ الوجه، السيارة، الليلة، الألم، صوته حين صرخ؛ وصوته وهو يحاول أن يفيقَه إنه هو... هو من مزق حياتي نصفين؛ ثم عاش هو حياته.

انـدفعتُ بالكرسـي المتحـرك خـارج غرفتـي، وعينـاي تبحثـان عـن أمـي كـالمجنون، أصرخ عليها حتى تظهر...

خرجت من حجرتها مسرعة وعلى وجهها ملامح الفزع...

قبـل أن تسـأل، اقتربـت وأنـا مـا زلـت أصـرخ بصـوت عـالٍ : تعـالي شـوفي اللـي خـد حيـاتي ودمرلـي مسـتقبلي، وهـو ماشـي فـي الشـارع علـى رجليـه!؛ اللـي بـدل مـا يبقـى محبـوس... أنـا اللـي اتحبسـت مكانـه علـى الكرسـي!؛ ماشـي ولا همـه، وهيبقـى همـه ليه؟ ما أنتم أخدتوا تمن عجزي ووجعي فلوس!

كنت أضرب بيدي على الطاولة حتى كدت أن أكسرها...

تجمدت الدموع في عينها، وتوقف الكلام في حلقها؛ مسكت يدي فدفعتها بقوة وقلت : متلمسنيش، أنتِ زيك زيه بالضبط.

صـرخت هـي الأخـرى فـي وجهـي وقالـت : كنـت عـايزني أعمـل إيـه وأحنـا معنـدناش ولا ملـيم؟ أنـت اللـي كنـت بتصـرف علـى البيـت، وأبـوك مـات وسـابنا مـن غيـر معـاش، ولا ورث، ولا حاجـة نتسـند عليهـا، كنـت هصـرف علـى علاجـك منـين؟ كنـت هجيـب شـقة تانية إزاي؟

قلـت وإنفعـالي لـم يهـدأ : يـاريتني مـت بـدل اللـي أنـا فيـه ده، أنـا كنـت عـايزة يأخـذ جـزأه، مش أشوفه وهو رايح جاي قدامي، وأنا متكتف ببص عليه.

اقتربت مني في خوف وحضنتني، لم أدفعها، لم أقاوم، فأنا كنت بحاجة إلى حضنها أكثر منها.

بكيت في حضنها كأني فقدت رجلي في تلك اللحظة، لم أستطع الكلام، ولا هي أيضًا، لا يوجد ما نقوله بعد كل هذا...

عدت إلى غرفتي وعاد معي شعور غريب، شعور بالراحة، كأن مواجهتي مع أمي أراحتني، لم أعد غاضبًا منها، ماذا ستفعل وحدها؟ هل لو كنت أنا مكانها كنت سأوافق على التسوية بهذا الشكل؟ أسئلة تدور في رأسي لا أجد لها تفسير.

مرت أيام كثيرة، لم أكن أهتم بمراقبة أحد، ولم أعد عنيفًا مع أمي كالسابقة، كأني أصبحت لا أقوى على أي شيء.

بعد عدة أيام، كنت جالسًا خلف شباكي، رأيت فاطمة في شرفتها، ثم رأيتها تقف كالمعتاد مع البواب تعطيه ورقة الطلبات، وتنتظر رحيله؛ علمت أنه قادم رغم انقطاعه منذ فترة طويلة...

بعد دقائق كان واقفًا يراقب الشارع بقلق تحت قبعة منخفضة، كأنه يخشى أن يعرفه أحد؛ هدوء الصباح يُغطي المكان بطبقة من الثقة الزائفة.

خرجت فاطمة للشرفة مرة أخرى ونظرت إلى الشارع، ثم أغلقت الستارة...

كانت إشارته للصعود، تنفس في ضيق واندفع إلى الداخل بخطوات سريعة، ولكنه تظاهر باللامبالاة كأنه زائر عادي، اختفى خلف باب العمارة.

راقبته في حسرة وغضب، ذلك الوحش الذي أفترس شبابي، ويفترس رجولة نجيب ولا يستطيع أحد أن يوقفه؛ وددت لو خرجت إلى الشارع لأخبر نجيب بما يدور في بيته، لعله ينتقم لي قبل أن ينتقم لنفسها...

لم تمضِ سوى دقائق حتى ظهر عم نجيب يقترب من العمارة، يمشي بخطوات ثقيلة أثقل من المعتاد، كأنه غارق في التفكير؛ لم يكن يفترض أن يعود الآن، ومع ذلك كان قادمًا بثبات؛ رفع رأسه نحو العمارة ثم دخل هو الآخر...

ظللت أترقب النهاية التي تمنيتها يومًا، ولكن ساد الصمت، صمت غريب كأن الجدران نفسها كانت تراقب، لا أحد يعلم ماذا يحدث...

بعد دقائق بدت أطول من حقيقتها، خرج من العمارة الشاب؛ كان يمشي بخطوات مضطربة لا تخطئها العين، حتى أنه خرج بدون قبعته!

يسحب أنفاسه كمن خرج لتو من غرفة خالية من الهواء، لم ينظر خلفه كالمعتاد، ولكنه مشى سريعًا دون أن ينظر خلفه...

لم يظهر عم نجيب، ولم يُسمع أي صوت من الأعلى.

هل رأى شيئًا وفضل أن يصمت؟ هل انتبه العشيق لوجوده وتوارى عن نظره حتى يستطيع الهروب؟ هل خاف على سمعته وسمعة أولاده من بعده فقرر أن يعيش ويحمل هو العار فقط...

أيُعقل أن ينتقم من زوجته، ويترك العشيق صاحب الجرم الأكبر؟ نعم، أنه هو المجرم، لقد أغوى فاطمة حتى أوقعها في شباكه، فهو محترف في الإقناع؛ لقد أقنع أمي أن تبيع ابنها وتقبض الثمن، فمثل هذا لا يصعب عليه إغواء سيدة مثل فاطمة؛ تلك السيدة التي تقول أمي أنها مثل الملاك، لم تكن أمي لتخطئ في حكمها أبدًا، لكن ذلك الشيطان هو السبب...

لا أكذب عليكم، شعرت بخيبة أمل؛ لماذا هو يحظى بكل شيء، وأنا أخسر كل شيء؟

أرى في عيون الناس شفقة لا أريدها، تعاطف لا أحبه، ابتسامات باهتة ودموع تريد أن تُذرف على حالي.

استيقظت ذات صباح وقررت أن أخرج إلى الشارع؛ كنت أشعر بالعجز أكثر وأنا مختبئ بداخل الكرسي وخلف شباكي، أجرّ الكرسي المتحرك كأنه ذنب أحمله، أهرب من العيون التي تلتصق بي كأنها سهام...

وأنا أدفع الكرسي ببطء، رأيت فاطمة تخرج من منزلها، وينتظرها تاكسي بجانب البوابة، يساعدها في وضع حقائبها بداخله؛ راقبت المشهد جيدًا حتى رأيتها تنظر إلى الشارع نظرة كأنها تودعه...

عدت إلى المنزل مرة أخرى سريعًا لأسأل أمي عما حدث، فهي دائمًا ملمّة بأخبار الشارع؛ أسئلة كثيرة تدور في رأسي أنتظر إجاباتها من والدتي، ناديت عليها.

خرجت إليّ وعلى وجهها علامات استفهام : أنت لحقت تنزل ده؟ إنتَ مكملتش خمس دقائق!

أنا : لا، أصلي شفت حاجة غريبة فقلت أسألك، هي فاطمة ماشية وسايبة البيت؟

تنظر إليّ باستغراب وتقول : أنت مالك مركز مع نجيب ومراته كده ليه؟

أرد بعصبية : خلاص أنا غلطان إني رجعت أتكلم معاكِ؛ وأتجهت إلى غرفتي.

أمي : طيب، خلاص، أنا مقصدش، استنى بس هحكيلك، تعال هنا.

بص يا سيدي (نجيب)، من كام يوم طلع كده لمراته قبل ما العيال ييجوا من المدرسة، وقال لها إنه خلاص هيتجوز (صباح)؛ الست طبعًا مستحملتش وطلبت الطلاق.

وقالت له: هتتجوز خد عيالك معاك، ربيهم أنت ومراتك الجديدة، وسابت له البيت زي ما أنت شفت كده.

أنـا : الله، مـش أنـتِ بتقـولي دي مراتـه التانيـة، إيـه المشـكلة بقـى؟ مـا هـي عملـت كـده مع مراته الأولى!

أمـي : لا، أنـا لمحتهـا كـده مـن بعيـد، لقيتهـا بتقـول لـي : الأولـى كانـت مـش مريحـة، علشـان كـده اتجـوز، لكـن أنـا حاجـة تانيـة مرتـاح فـي بيتـه، ومخليـة بـالي مـن ولاده ومنه؛ بصراحة عندها حق...

خرجـت منـي ضـحكة بـدون قصـدي وأنـا أسـتمع إليهـا؛ لـم أعـد أُنصـت لمـا تقـول؛ كـل ما جاء في تفكيري أنها كانت تليق بعشيقها، فكلاهما بلا قلب...

أصـبح عـالمي ممـلًا أكثـر وأكثـر، كـل أبطـالي ظهـرت حقيقـتهم أمـامي، لـم يعـد يحيطهم الغموض.

هكـذا هـي الطبيعـة البشـرية؛ عنـدما يُكشـف شـيء أمامـك تكـفّ عـن الرغبـة فيـه؛ مثلمـا كُشـفت حبيبتـي أمـامي، لا ألومهـا؛ فمـن التـي سترضـى بـي وأنـا هكـذا؟ لسـت نصـف إنسان فقط، ولكن نصف روح أيضًا.

أتـذكّر بعـدما أفقـت مـن الحادثـة وأنـا أنظـر فـي وجـوه مـن حـولي لأبحـث عنهـا... أيـن هي؟

أتـذكر ذلـك اليـوم المشـؤوم؛ اسـتيقظت قبـل المنبّـه بـدقائق، كـأن قلبـي لـم يسـمح لـي بالنوم أكثر.

ارتديت ملابسي، وفي جيب بنطالي الهدية الصغيرة ملفوفة بعناية؛ قطعة بسيطة، ولكني كنت ادّخرت من راتبي حتى أخبرها بدون كلام : أنا أفكر بك.

خرجت إلى الشارع بخطوات سريعة، الهواء البارد يلسع وجهي، ولكنه لا يطفئ شوقي للقائها؛ كنت أتخيّل ملامحها عندما تفتح العلبة، ارتباكها وابتسامتها التي دائمًا تُسعد روحي؛ لكن الطريق لم يكن يعرف شيئًا عن مشاعر البشر، ولا عن أحلامهم الصغيرة؛ ففي منتصف الطريق، كنت أعبر الشارع مسرعًا لألحق بالموعد؛ في تلك اللحظة دوّى صوت فرامل حاد، ثم ارتجف العالم من حولي، لمحت ضوء السيارة ينزلق نحوي كالوميض الخاطف؛ سقطت على الأرض، لم أعد أتنفس... أو أتنفس بصعوبة؛ كل ما أتذكره أني كنت أحكم قبضتي على الهدية في جيبي، كأنها آخر سر سأحرسه.

أشعر بالناس تقترب... أصوات تتشابك حولي، ولكني لا أستطيع فهم أو تمييز ما يحدث؛ كل ما أفكر فيه : هل ستنتظرني؟ هل ستعرف أني كنت قادمًا إليها في ميعادي؟

أتذكر أنني لم أكن أشعر بشيء، ولا أفهم ما حدث، ولم أكن أشعر بألم، بل كنت أشعر أني أراها وسط الحشود المتجمعة حولي... أو هذا ما كنت أتمنى أن أراه قبل أن يتغير كل شيء.

كنت أنا وإيمان نعيش في الحي ذاته، بيوتنا متلاصقة، كبرنا نحن الاثنان وشئ خفي لا أستطيع تسميته يكبر معنا، يلمع كلما التقت عيوننا.

كنت أكبرها بسنتين فقط، تعاهدنا بدون كلام على أن أصبح لها، وتصبح لي.

كانت إيمان تعرف فقري جيدًا، لكنها أحبت فيه شيئًا... إصراره، صدقه، ووعوده الصادقة بأنه سيصبح زوجها وستصبح كل عالمه قريبًا.

دخلت إيمان المرحلة الثانوية، أما أنا فسبقتها إلى التعليم الفني؛ لم أكن أستطيع أن أنفق على التعليم، خصوصًا بعد موت والدي؛ كنت أدرس وأعمل في نفس الوقت في ورشة لتصليح السيارات، حتى أصبحت محترفًا في التصليح.

كنا نجلس سويًا في وقت استراحتي، بعيدًا عن شارعنا أمام النيل، كما كان يفعل العاشقان الصغيران، نتخيل منزلنا وألوانه وعدد حجراته؛ كنت أعدها أن يكون منزلًا كبيرًا، ولكل طفل ننجبه حجرة مستقلة؛ سيعيش أولادي أفضل مني بكثير، لن يتذوقوا الفقر مثلي، حتى الورشة التي وعدتها أني سأفتحها قريبًا... اخترنا مكانها بعناية؛ كانت تضحك على أحلامي، لكنها كانت مؤمنة بي أكثر مني.

كنت أحتفظ بصندوق خشبي تحت السرير، أجمع بداخله مهر إيمان بعد أن أعطي أمي مصاريف البيت وأحتفظ بجزء لنفسي لأحقق حلمي قريبًا.

كل ذلك تبدّد في لحظة... حلمي، إيمان، قدمي.

يـأتي أهـل إيمـان للمستشـفى لزيـارتي ولكـن بـدونها؛ كـل مـرة أبحـث عنهـا ولا أجـدها، فأصاب بخيبة أمل أكبر.

حتـى جـاء يـوم وجـدتها تـدخل مـع أمهـا؛ كانـت تقـف فـي الزاويـة لا تعـرف كيـف تقتـرب، ولا تعـرف مـاذا تقـول؛ فقـط تنظـر إلـيّ بعيـون مذهولـة غيـر مصـدقة، كأنهـا كذّبتهم جميعًا حتى رأتني.

منـذ أيـام كنـا نمشـي معًـا نرسـم أحلامنـا ونراهـا فـي مخيلاتنـا، والآن لـم أعـد أعـرف مـا مصيري، ولا مصير أمي، ولا مصير حبيبتي.

رجعت إلى المنزل محمولًا على الأيدي كطفل صغير لم يعرف المشي سابقًا.

طلبـت مـن أمـي أن تُخـرج مـن تحـت سـريري الصـندوق الخشـبي؛ كانـت أمـي تعـرف قصة حبي أنا وإيمان؛ كانت تدعي لي دائمًا وتقول : ربنا ينولك اللي في بالك.

أخرجت الصندوق ويداها ترتعشان من حزنها عليّ...

قلـت لهـا : افتحيـه وخـدي اللـي فيـه... أهـو ينفعونـا فـي الأيـام اللـي جايـة؛ أنـا زي مـا انتي شايفة، خلاص مبقتش أنفع أشتغل، ولا أنفع لحاجة خالص.

أغلقـت فمـي وهـي تبكـي وتقـول : متقـولش كـده علشـان خطـري... محـدش عـارف حكمة ربنا إيه!

تفتكري إيه حكمة ربنا في إنه يخلّيني عاجز في السن ده؟

بقولك إيه... خدي اللي في الصندوق، هما مش مبلغ كبير أصلًا، نمشي بيهم شوية.

تنكس رأسها وتقول بصوت خافت : بس ده كان مهر إيمان...

يا ماما هو أنا كنت عارف أتجوزها وأنا سليم لما هتجوزها دلوقتي!

خرجت أمي من الغرفة وهي تحضن الصندوق الخشبي كأنه ما تبقّى مني.

بعد أيام يدق باب غرفتي؛ أرى إيمان تدخل وهي شاحبة الوجه، آثار البكاء تكاد تحفر في وجنتيها.

ما إن رأيتها حتى اعتدلت في جلستي... نظرت في عينيها الذابلتين، ورأيت كلامًا كنت أتوقعه... كلامًا لم يُنطق، ولكني شعرت به؛ يدها ترتجف، ودموعها تسيل بلا إرادة.

قالت بصوت مكسور : أنا آسفة... بس مش هعرف أكمل.

لم أرفع رأسي، لم أنظر لها، فقط اكتفيت بتمتمة باردة وأنا أقول لها : أنا عارف.

تقدمت لتمسك يدي فسحبتها سريعًا، لأنني أعلم أن مسكتها في تلك اللحظة بالذات إشفاق منها عليّ، لا محبة.

همست بوجع : كنت أتمنى...

قاطعتها بدون أن أنظر إليها : وأنا أيضًا كنت أتمنى...

ولأول مرة منذ أن كانوا أطفالًا، تخرج إيمان من أمامه، ولم ينادها ولم تعد مرة أخرى.

ينظر إليها وهي مغادرة وتغلق الباب، كأنها تُغلق أبواب قلبه التي لم تُفتح سوى لها.

بعد أسابيع مرت عليّ كأنها سنين طويلة، أسمع أصوات زغاريط مبتورة، كأنها تستحي أن تكتمل؛ تدخل أمي وفي عيناها الدموع، أفهم مصدر الزغاريط ولا أتكلم معها في شيء.

ولكني أتوسل إليها أن نغادر الحي بأقصى سرعة، لم أغادر فقط لصعوبة الصعود، ولكن ما كان قلبي سيتحمل كل هذا... أُغادر الحي والناس تودعنا وأنا عيني معلّقة بشرفتها لعلي أراها تودعني لآخر مرة.

لم تظهر، لعلها كانت واقفة خلف الستارة تودعني دون أن أراها...

أخذت نفسًا طويلًا، كأن قلبي يتعلم المشي من جديد، حتى لو لم أستطع أنا ذلك؛ شيء ما تغيّر بداخلي، أقوى من البتر، وأقسى من الفراق.

لقد أدركت أن الحب قد يمنحك أجنحة... لكنه أيضًا قد يسلب منك القدرة على الوقوف؛ لهذا كنت أحب العاشقان الصغيران، فقصتهم تشبه قصتي...

الحب، الأمل، الحلم، الضياع...

قطع ضجيج ذكرياته ضجيج آخر من الشارع؛ أصوات تتقاطع مع بعضها البعض، سقف وغناء وتهاني حارة؛ فتح الشباك ليرى عم نجيب وصباح (السيدة الحسناء سابقًا)، تتشابك أيديهما ويتجهان نحو عمارة عم نجيب.

لم يكن شعرها الناعم هذه المرة يخرج في دلال كعادته، ولا عباءتها التي تُظهر مفاتنها أصبحت كما هي؛ من الواضح أن شخصية عم نجيب تظهر في ملابسهم فقط!

أصبحت أرى صباح كل يوم بالشرفة، تنظر بلهفة على الشارع وتتلفت لعلها ترى من تنتظره قادمًا إليها من جديد، ولكن دون جدوى.

ذات يوم وقفت في الشباك، ولكن دون أن أقف خلفه... فتحته حتى يراني الناس مثلما أراهم؛ أصبحت لا أهتم بنظراتهم المتعاطفة الكاذبة، فجميعهم كاذبون وخائنون؛ لو التفت إليهم سأجد وراء كل منهم حكاية، ولكني لم أعد أبالي بحكاياتهم؛ وقفت أنظر في أعين المارة، حتى يعلموا جيدًا أني أراهم وأعرف ما يفعلون.

حتى وجدت الشاب الذي صدمني يمشي وهو يمسك بيد الفتاة الشابة (العاشقة الصغيرة).

دار بي الكرسي المتحرك، كأن طفلًا ثقيلًا يلهو بي... لم أصدق ما رأيته؛ فهمت وقتها سبب زيارته المتكررة، وحديثه مع الناس في الشارع، وانقطاعه عن زيارات فاطمة؛ شعرت بالخذلان، كأنها كانت حبيبتي أنا.

حقدت عليه أكثر وأكثر؛ ها هو يخطف حلم شاب آخر، يكسر قلبه وقلبها... هي الآن تذكرني بإيمان عندما رأيت في عينها قلة الحيلة.

أضاع حياتي، وأخذ حب فتى آخر، وأجبر العاشقة الصغيرة على حبه... ألم أقل لكم إنه محترف في الإغواء؟

كنت أشعر من نظرات الفتاة أنها حزينة مضطرة، لم يعد جمالها ولا إشراقة وجهها كما السابق، كأن شيء ما انطفأ بداخلها؛ أتمنى أن تخونه هي الأخرى كما كانت تفعل فاطمة، أن تُهلّل رجولته وتضرب بها عرض الحائط كما كان يفعل مع عم نجيب؛ أن ينتقم لي أحد ما دمت أنا غير قادر على الانتقام.

تغير شكلها كثيرًا... أهذا بسبب فقدها لحبيبها الآخر، أم أن هذا الشاب يُفسد حياة كل من يمر عليها؟ يُغير شكلهم، يمتص أرواحهم.

ها هي صباح تقف في شرفتها، ولكن هذه المرة كانت مبتسمة مترقبة، كأنها تنتظر حبيبها.

رأيته وهو يدخل الشارع؛ أطال لحيته وشعره مبعثرًا، لم يعد (العاشق الصغير)، شكله كبر كأن ما مر به زاد على عمره أعوامًا، يمشي بخطوات مهزومة؛ أشعر أنه يتراجع إلى الأمام، يتجه ببطء نحو بيت أمه الجديدة، وهي تراه وتلوح له بفرح؛ ينظر إلى الأعلى بعينين مهزومتين ويلوح لها.

في ذلك اليوم أمضى معها وقتًا طويلًا، ثم رأيته يغادر وهو في حال أحسن، عيناه الزائغتان أشعر أنهما ارتاحا أكثر، حتى شعره الأشعث ترتب، كأن أمه أعادت صياغة شكله من جديد؛ أصبح يتردد على أمه كل فترة للاطمئنان عليها، ولكنه لا يبيت معها.

في ذات مرة، وهو مغادر، رأى حبيبته تمشي بجوار خطيبها، تجمد مكانه ولم يستطع أن يتحرك أو يرفع عينه عنها، كانت على الرصيف المقابل؛ لم يتغير بها شيء، لكن ما تغير بها هذا الشخص الذي يقف بجانبها... كانت تبتسم نفس الابتسامة التي عرفها هو يومًا؛ شعر وكأن الهواء انسحب من رئتيه مرة واحدة؛ شيء ساخن ارتفع من صدره إلى حلقه، شيء يشبه الغصة... أو ربما الذكرى حين تتحول إلى خنجر.

رآها تمشي معه وتمسك بيده وتمشي مبتعدة... وكأن العالم كله مر أمامه وهو عاجز عن اللحاق بأي جزء منه؛ انخفضت كتفاه، وبدا كمن يشيخ في لحظة واحدة؛ لم يستطع أن يجتاز الشارع... أحس أن الأرض لا تستطيع أن تحمله؛

غير اتجاهه مرة أخرى، وعاد مرة أخرى ليصعد إلى أمه.

بعد ساعة تقريبًا، ظهر وهو يغادر سريعًا وكان ممتلئًا بالغضب، يمشي وهو يتلفت حوله كأنه يتواعد للناس جميعًا، كأنه يلومهم جميعًا على ما حدث له...

ها هم أبطالي يتساقطون واحدًا وراء الآخر.

أصبحت زيارته لأمه شبه معدومة، أرى صباح تقف تنتظره كل يوم، ولا يظهر؛ ما أشبه اليوم بالأمس، كأن من سكن هذا البيت، كُتب عليه فقد من يحب... الفائز الوحيد في تلك المعركة هو الشيطان.

أرى سيارته تقف قرب منزل الفتاة كل فترة، فأعرف أنه موجود، فينقبض قلبي لمجرد إحساسي بوجوده؛ يأتي إلى شارعي، ولا أستطيع أن أصرخ في وجهه، لا أستطيع أن أقول لكل من حولي : هاهو الذي كان سببًا في مأساتي.

فكيف أصرخ وقد قبضت أمي ثمني سابقًا؟

ذات ليلة، في وقت متأخر، والشارع أصبح أهدأ، رأيت سيدة تقف بالقرب من سيارة الشاب الذي صدمني، لم أعرفها، فهي كانت ترتدي نقابًا وجلبابًا فضفاضًا واسعًا...

لم أهتم بها، فأنا لا أستطيع تمييزها من بعيد؛ ولكن بعد ساعة، وجدته يخرج ويتجه نحو السيارة، والسيدة تقترب منه.

لم ينتبه إليها في أول الأمر، ولكنها فجأة اقتربت، وفي يديها شيء لامع... وطعنته في صدره... طعنتان.

ثوانٍ فقط، ثم حدث كل شيء بصورة مرعبة :

هجوم حاد...

صوت اختناق...

وقع جسد على الأرض...

وصمت عميق، كأن الليل ابتلع الصوت قبل أن يصل إلى العالم.

الرجل الذي دمر حياتي كان ممددًا أمامي على الأرض بلا حراك؛ بقيت أحدق في الجسد الساقط، وفي البقعة الداكنة التي تمددت تحته؛ في داخلي لم يكن هناك خوف، لم يكن هناك صدمة... بل شيء آخر شعور غريب وثقيل، غير نقي ولكنه حقيقي، راحة، أو شيء يشبه الراحة؛ أغلقت شباكي وكأن شيئًا لم يكن.

في تلك الليلة نمت بعمق كما لم أنم من قبل، نمت وأنا أحلم به ميتًا في مكانه؛ كان في صدري ارتياح، كأني أنا من فعلتها.

لم أراجع المشهد في ذهني، ولم أسأل نفسي : هل ما رأيته صواب أم خطأ؟

لم أحاسب ضميري، ولم ينشأ بداخلي أي صراع؛ بل بالعكس شعرت بلحظة نادرة لم أشعر بها من قبل، لحظة لم أعشها منذ الحادث.

لـم أعـد أرى وجهـه أمـامي، تلاشـت مـن ذاكرتـي اللحظـة التـي ظلـت تحـرق صـدري سـنين طويلـة... نمـت بعمـق فـي هـذه اللحظـة، كـأن العـالم أعـاد ترتيـب ثقلـه عنـي للحظة.

لـم تمـر سـوى سـاعات قليلـة حتـى اسـتيقظت علـى أصـوات الصـراخ وتجمـع النـاس فـي الشـارع؛ دخلـت أمـي وهـي مندفعـة، وتقـص علـيّ مـا حـدث؛ كنـت أسـمعها فـي استمتاع، فأنا شاهد على كل شيء.

مـرت أيـام، والشـارع ملـيء بعربـات الشـرطة، والتحقيـق مـع كـل فـرد فـي الشـارع؛ طبعًـا قـاموا بسـؤالنا، ولكنـي شـخص قعيـد، لا حـول لـي ولا قـوة، وطبعـا قلـت أننـي لـم أرَ شيئًا، مع أنني كنت أعلم جيدًا من هو القاتل.

لـم أكـن أخطـئ مشـيته، ولا حـذاءه الرجـالي، التـي لـم يخفيهـا الجلبـاب الواسـع الـذي يرتديه.

هل أعترف؟ لماذا أصمت؟

نظـرت إلـى قـدمي المبتـورة، تـذكرت الألـم والصـراخ فـي بـادئ الأمـر، تـذكرت عيـون إيمـان وهـي تخـذلني وتتخلـى عنـي، سـمعت مـن بعيـد أصـوات الزغـاريط المكتومـة ليلـة خطبتها؛ تلاشت حيرتي وكنت أعرف السبب : الرجل الميت هو من دمر حياتي...

والقاتل هو من أنهى شيئًا كان يعذبني كل يوم...

بينما كانت الشرطة تستجوبني، سألني الضابط : هل رأيت شيئًا؟

هززت رأسي وقلت بهدوء : لا... لم أرَ شيئًا، الناس تقول إن ما حدث حدث في وقت متأخر، وأنا بسبب الأدوية لا أستطيع السهر كثيرًا.

الضابط لم يضغط علي أكثر، فهو مشفق على حالتي.

انصرف، فشكلي لا يوحي بأنني رجل خطر، أو أحمل سرًا.

دفعت الكرسي بعيدًا بهدوء، رجل لا يشعر بالذنب، بل بالتحرر.

لم أعد مؤمنًا بالانتقام، لكنه لم يعد يؤمن بالقانون أيضًا.

في داخلي، لم أعد ذلك الشخص الذي يطلب العدالة... بل صرت رجلًا صامتًا، يعرف الحقيقة ويحملها كسرًا أخيرًا لن يبوح به.

العدالة لم تأت من المحكمة، بل من يد أخرى، أكثر ظلمًا وأقل شفقة... وهو ببساطة، لم يمنعها.

***

القصة الثالثة

حين لمستُ ظلها

بسم الله الرحمن الرحيم

يستيقظ مهاب فزعًا من نومه، وهو ينتفض من على سريره، كأنه كان على وشك السقوط، يلتقط أنفاسه بصعوبة، يعتدل من رقدته ويجلس على حافة السرير، يتحسس وجهه المليء بالعرق، يذهب إلى الشرفة ويشعل سيجارته في ضيق، يلفحه الهواء البارد على جسده فيشعر ببعض الراحة، يتأمل شكل النيل المهيب أمامه وهو مظلم إلا من بعض المراكب الصغيرة المزينة بالأضواء.

في الفترة الأخيرة أصبحت تلاحقه الأحلام المزعجة، لماذا الآن لم يكن يحلم من الأساس؟

التزم بكل ما قيل له : ابتعد عن الطعام في وقت متأخر، بدأ بتشغيل القرآن بصوت خفيف بجانبه، ولكن دون جدوى!

بات متأكدًا أن تلك الكوابيس تراوده منذ انتقاله إلى بيت جدّه وجدته المتوفيان...

ولكن ماذا يفعل؟ لا يملك رفاهية الاختيار، فمنزله القديم شبّ به حريق في الدور الأرضي، بسبب المطعم المفتوح به حديثًا، مما أدى إلى تصدع البناية بالكامل، وإجبار السكان على إخلائها لأن العقار آيل للسقوط؛ يتذكر الكابوس ويرى نفسه وهو يقع من ارتفاع شاهق، ويصرخ بصوت مكتوم ويستنجد بلا جدوى.

ينقبض صدره من جديد، ينظر حوله في محاولة منه لنسيان الكابوس، ليجد في الشرفة الجانبية سيدة تجلس على كرسي صغير، ولا يرى منها غير شعرها البني الكثيف ينثدل على ظهرها؛ تستند بذراعها إلى السور وتنظر إلى النيل طويلًا، كأنها تنتظر شخصًا ما...

ظل يراقبها في صمت، وكلما هم بالدخول، شعر بشيء يجعله يقف لدقائق أخرى؛ حتى صارع فضوله ودخل واستسلم للنوم مرة أخرى.

لم يكن نومًا هادئًا؛ رأها في الحلم! رأى جارته التي لم يلمح منها سوى شعرها البني الكثيف، كيف عرف أنها هي جارته؟ لا يعلم، ولكن شيء ما أخبره أنها هي!

رأها في مبنى مهجور تتسلل إليه أضواء خافتة، وهي واقفة عند باب صدئ وسلم عالي، تهمس باسمه، رغم أنها لا يعرفها ولا يعرفها؛ همسها كان واضحًا، كأنها قريبة منه جدًا : مهاب، لا تفتح الباب

لم يكن وجهها واضحًا، يغطيه شعرها الكثيف، وفجأة دوي صوت سقوط عنيف، وانفتح الباب فجأة...

استيقظ مفزوعًا، يتصبب عرقًا، وقلبه ينبض كأنه جرى لأميال؛ لكنه كان قد تعوّد على تلك الأحاسيس، نظر إلى السقف وهو يتذكر تفاصيل الحلم مرة أخرى الذي لم يفزعه كباقي أحلامه، فوجودها الغريب أضاف شيء جديد لأحلامه.

علـى سـلم بيتـه، وهـو يسـتعد للنـزول، وجـدها تقـف أمـام بـاب شـقتها المقابـل لشـقته؛ نظر إليها غير مصدق، ما تلك الصُدف المتوالية!

ابتسـامتها لـم تكـن بريئـة؛ كانـت هادئـة واثقـة، كأنهـا تعرفـه، وكأنهـا كانـت هنـاك فـي الحلم هي الأخرى!

مهـاب متجمـد فـي مكانـه، عينـاه معلقتـان بهـا، وقلبـه يخفـق بعنـف لا يفهـم سـببه، أراد أن يبتسـم هـو الآخـر، أو يلقـي التحيـة، لكنـه لـم يتحـرك؛ وهـي بـدورها اكتفـت بتلـك النظرة والابتسامة، ثم أدارت ظهرها، واختفت خلف بابها.

يسـير فـي الشـارع وهـو مـا زال يفكـر بهـا، يقطـع تفكيـره صـوت هاتفـه ليجـد رقـم أختـه ليلي.

ليلـي : مهـاب حبيبـي، إزيـك عامـل إيـه؟ وحشـتني أوي، أنـت علـى طـول تليفونـك مقفول ليه؟ مش عارفة أوصلك؟

مهـاب : طـب أديني فرصـة أرد عليـك، واحـدة واحـدة، أنـت كمـان وحشـتيني جـدًا. والتليفون مفتوح على طول.

ليلـي : ممكـن الشـبكة أو حاجـة، وبعـدين أنـت مبتكلمنـيش ليـه؟ مـش بـاجي علـى بالـك خالص؟

مهـاب : حـرام عليـكِ يـا ليلـي، ده أنـا ملـيش غيـرك، بـس فـرق التوقيـت عنـدك فـي أمريكـا يبقـى مـش مجمـع الوقـت كـويس، ومـن سـاعة مـا نقلـت فـي بيـت جـدّك العجيـب ده، وأنا مش عارف أنام، ولو نمت الكوابيس مبتسبنيش

ليلي منفعلة : ما أنا قلت لك البيت ده مقفول بقاله سنين، وماما الله يرحمها ماكنتش بتحبه خالص، أنت اللي أخدت القرار ورحت.

مهاب : خلاص يا ليلي، اللي حصل حصل، وبعدين مكنش في اختيارات، أنا كنت في الأول مش واخد على المكان.

ثم خرج منه ابتسامة وهو يقول : بس شكلي هتعود عليه.

***

يتوجه إلى عمله وهو شارد بنصف عقل، ما زال يفكر في جارته الغامضة... عمله ممل ورتيب، لكنه تعوّد عليه، يعمل كمحاسب في إحدى الشركات.

أصبح كل تفكيره في جارته الغامضة، ينتظر في شرفته ليلاً كل يوم ليراها، ولكن شرفتها مظلمة، مغلقة كأنها لم تكن موجودة يومًا.

لماذا بات متعلقًا بها ويراقبها هكذا؟

تلك الغريبة التي لم يراها إلا في كوابيسه، أهكذا تسيطر على عقله!

أمسك هاتفه واتصل بـ(نادين)، فتاة كان على علاقة بها منذ فترة، لكنه لم يكن يشعر من ناحيتها بشيء، ولكنها كانت تحبه وهو يعلم، وتحاول التقرب منه لكن دون جدوى، دائم الاعتذار، يتهرب من لقائها حتى مكالمتها، كان يرد دائمًا

باقتضاب متحججًا بأعذار واهية، حتى أنها أحست أنه يتجاهلها وتوقفت عن مكالمته، وانقطعت أخبارها منذ شهور.

فكر في محادثته لملأ فراغه ولإسكات ضجيج عقله الذي يكاد أن يطيح به.

مهاب : نادين، إزيك؟

نادين تصمت لثوانٍ كأنها تستجمع شجاعتها لترد عليه، ترد بصوت هادئ : ياه مهاب، كويس والله إنك لسه فاكرني.

مهاب : عيب عليكِ، هو أنا أقدر أنساكِ؟ بس أنتِ عارفة...

نادين، مقاطعة بتهكم : آه آه، عارفة طبعًا، الحريقة بتاعت البيت، والنقل لبيت جديد والشغل، كل الكلام ده أنا سمعته منك كتير.

مهاب، وهو يشعر بالإحراج : طيب ما أنتِ عارفة كل حاجة، أنا بكلمك علشان جيتِ على بالي قلت أطمن عليكِ، ولو فاضية نتقابل نشوف بعض.

نادين ضاحكة : لا خلاص مبقاش ينفع، ما هو أنت لو بتسأل عليّ، كنت عرفت إني اتخطبت من شهرين وهتجوز آخر السنة، عقبالك.

مهاب : ألف مبروك، معلش يا نادين، أنا فعلًا كنت مقصر معاك، أنتِ بجد تستاهلي كل خير.

أغلق الهاتف وهو يشعر بالخجل، ولكنه في نفس الوقت أحس أن تلك المكالمة أعادت جزءًا من كرامة نادين التي أهدرتها وهي معه.

استسلم لوحدته وضجيج رأسه، وصورتها التي تلاحقه، كان غيابها كأنه انتزع جزءًا من روحه؛ ظن أنها رحلت، أو ربما كانت وهمًا من صنع وحدته.

ذات مساء بينما كان يستسلم لظلال الخيبة رفع عينية ورأها من جديد جالسة في نفس المكان، كأن شيئًا لم يكن، لحظتها شعر أن الزمان استدار ليمنحة فرصة أخرى، أو لعله وقع من جديد في أسر حلم لا يريد أن يستيقظ منه.

أطفئ سيجارتة عند حافة النافذة وما أن رفع رأسة حتي لمحها، لا كما أعتاد أن يراها في شرفتها بل واقفة خلف زجاج نافذته، تجمد في مكانة غير مصدق، كانت تحدق فيه بعينين تائهتين وكأنها استيقظت من حلم طويل! ووجدت نفسها في عالم غريب قبل أن يتمكن من النطق أو يفهم ما يحدث، انطلقت من فمها عبارة مرتعشة : أنت رأيتني... أليس كذلك؟

ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، اختفت بين الظلال وتركته غارقًا في دوامة الأسئلة؛ ليجد نفسه يستيقظ مرة أخرى وهو منفعل كعادته، مدهوشًا من هذا الحلم العجيب. بدأ يشعر بالغرابة من تكرار ظهورها في أحلامه.

مرت أيام، وكل شيء عاد كما كان... إلا هو؛ لم يعد قادرًا على النظر إلى الشرفة دون أن يتذكر تلك اللحظة المستحيلة : وجودها خلف نافذته، وحديثها الغامض، ونظراتها التي كانت تحمل خوفًا واعترافًا في آنٍ واحد.

أصبح يخاف من منظر النيل والشرفة؛ قرر ألّا يفكر بها مرة أخرى، حتى لو جاءته في أحلامه، سيطردها منها.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين سمع صوت ارتطام حاد يأتي من فوق الشرفة، فهو في الدور الأخير؛ دخل إلى الشرفة فرأى ظلالًا فوقه تتخبط؛ لم يتردد، أخذ معطفه واندفع إلى سطح البناية.

وحين وصل، رآها... كانت تحاول منع قط صغير من السقوط من الحافة ويداها ترتعشان خوفًا.

اقترب منها دون أن تشعر، مدّ يده بسرعة ليمسك بالقطة قبل أن تنزلق، وكاد هو نفسه أن يفقد توازنه لولا أنها أمسكت بذراعه في اللحظة الأخيرة.

سقطا معًا على الأرض المبللة بالمطر، يتنفسان بصعوبة، والقطة الصغيرة تقف بينهما كشاهد على لحظة غير متوقعة.

تزيح خصلات شعرها المبلل عن وجهها وهي تقول : أنت أنقذت حياة القطة، وأنا أنقذت حياتك... يعني كده خالصين.

يضحك وهو ينظر إليها : أنتِ أصلًا إيه اللي طلعك فوق السطوح؟

ترد : اللي طلّعني قدامك أهي، بفتح الباب جريت على السلم وطلعت هنا بس الحمد لله أنت ظهرت في الوقت المناسب.

– يبقى كده لازم أشكر القطة بقى إنها كانت السبب وخلتني أتكلم معاكِ.

مدّت يدها بالسلام وقالت : مي... بس بصراحة ده اسم الدلع، أمّا اسمي الحقيقي مش هقولهولك دلوقتي.

ضحك وهو يقول : مهاب... وده اسمي الحقيقي، مش الدلع.

كان موقفًا بسيطًا، لكنه كان بداية لأبواب فُتحت... ولن تُغلق قريبًا؛ انصرفا في ذلك اليوم دون أحاديث كثيرة، لكن عينيها وعدته بأكثر مما قد يحمله الكلام؛ أصبح بينهما اتفاق بدون اتفاق؛ تظهر في الشرفة ليلًا في المواعيد التي يظهر فيها، ويتبادلان النظرات وابتسامات خجولة تشبه التحية؛ كان ينتظر الفرصة التي تتيح له فتح أي موضوع معها.

انقطعت الكهرباء في الحي في وقت متأخر، فخرج مهاب إلى الشرفة ليستنشق بعض الهواء، فوجدها هناك تحمل كشافًا صغيرًا في يدها؛ تبادلا الابتسامات ثم بادر بالحديث : عايز أسألك على حاجة... هو الكشاف ده جايباه منين؟ ده قديم أوي، هو لسه موجود؟

مـي : آه هـو قـديم فعـلًا، بـس عزيـز عليّـا أوي وبحبـه؛ وبعـدين أهـو بينفعنـي لمـا النـور بيقطع.

مهاب : هو النور بيقطع كتير هنا؟

مي : لا مش كتير... بس ساعات، كل فترة كده.

ثـم أكملـت : هـو أنـت نقلـت هنـا مـن امتـى؟ أصـل أنـا محسّـتش بعفـش بيطلـع ولا بـأي صوت، وفجأة لقيتك.

مهـاب : أنـا نقلـت مـن حـوالي شـهرين كـده... وده بيـت جـدي وجـدتي الله يـرحمهم، فمـا احتجتش أنقل حاجة معايا.

مي : ربنا يرحمهم... النور جه أهو يلا أنا هدخل بقى؛ تصبح على خير.

وقـف مهـاب وحيـدًا، لكـن داخلـه أصـبح أكثـر هـدوءًا وفرحًـا بوجودهـا الغـامض فـي حياته.

ومنـذ ذلـك اليـوم تغيّـر شـيء فـي علاقتهمـا... أصـبح أكثـر وضـوحًا؛ لـم تتوقـف الأحاديـث، لا علـى الشـرفات فقـط، بـل عبـر الرسـائل القصـيرة، ثـم اللقـاءات فـي المقهـى القريـب مـن بيتهمـا؛ كـان يجـد فيهـا شـيئًا مريحًـا... شـيئًا يشـبه البيـت بعـد الغيـاب؛ لكنهـا دائمًـا كانـت تحـافظ علـى مسـافة خفيـة، كأنهـا تحمـي سـرًا لا تريـد أن يُمس.

كانت تبتسم حين يسألها عن أي شيء يخص حياتها، ثم تغيّر الموضوع بلطف ذكي.

قالت له مرّة : مش كل الحكايات بتتحكي يا مهاب... في حاجات لو فضلت في مكانها هتبقى أحسن.

ثم تختفي فجأة... تغلق هاتفها... ولا تظهر في شرفتها؛ يرى الظلال والأضواء خلف زجاجها، يكاد يُجن، لكنه لا يستطيع فعل شيء سوى الانتظار.

يستيقظ يومًا على رسالة منها : أحب وجودك... كأنك وعد قديم استنيته.

تستفزه الرسالة أكثر مما تفرحه، يتصل بها غاضبًا، ويطلب مقابلتها؛ زال توتره وغضبه عندما رآها قادمة نحوه، وعلى وجهها علامات الخجل؛ لم يستطع أن ينفجر فيها غضبًا كما تخيل... حين رآها نسي كل شيء.

قال بصوت هادئ : مي... أنا مش عايز أعرف كل تفاصيلك؛ بس حسّيت إن في حاجة جواكِ بتخبيها، ومش عايز أضغط عليكِ.

صمتت قليلًا ثم قالت بصوت خافت : في حاجات لو اتقالت... ممكن تغيّر نظرتك ليا وأنا مش مستعدة إني أخسرك.

مهاب : بس أنا مش عايز أعرف علشان أحكم عليكِ... أنا عايز أعرف علشان أفهمك.

ابتسمت في حزن وقالت : يمكن في يوم لما أقدر...

لم يُلحّ مهاب عليها؛ حبّه لها كان أصدق من الفضول؛ نما بينهما حب هادئ يشبه صلاة صامتة؛ كانت تشاركه تفاصيلها الصغيرة؛ فنجان القهوة المفضل، أغنية قديمة، خوفها من صوت المطر؛ لكن كلما اقترب أكثر شعر أن شيئًا يقف بينهما... حاجزًا غير مرئي؛ كأنها تحبه بعمق... لكن من وراء جدار زجاجي؛ اعتاد على اختفائها كل فترة بضعة أيام، كأنها تعطيه عطلة إجبارية...

وذات مساء وهما معًا، كانت تضع رأسها على كتفه، وهائمين في منظر النيل.

فقالت دون أن تنظر إليه : في حاجة عايزة أقولها لك... بس مش عايزاك تكرهني بعدها.

أمسك يديها وهو يُقبّلها وقال : أنا عمري ما أكرهِك مهما حصل؛ وبعدين أنا خلاص فعلًا مش عايز أعرف حاجة عنك؛ أنا بحبك كده وراضي بكل تفاصيلك، حتى الإجازة اللي بتديهالي بالعافية دي بقيت أحبها.

نظرت في عينيه مباشرة وقالت : أنا مش لوحدي... أنا عندي طفلين، بس أنا منفصلة عن جوزي ولسه محصلش طلاق رسمي.

ظل صامتًا يُحدِّق فيها محاولًا أن يستوعب ما سمع.

تابعت بصوتٍ مرتعش : أنا عايشة لوحدي أنا والولاد؛ جوزي كل فترة بييجي يشوف الولاد ويتطمن عليهم، يقعد معاهم كام يوم ويمشي، أظن كده عرفت أنا بختفي ليه.

قال مهاب وهو في حالة ذهول : أنا مش عارف أقولك إيه... لأن عقلي أصلًا مش مستوعب الموضوع؛ بس يعني إيه منفصلة ومحدّش يعرف؟ هو سِرّ؟ وإزاي أهلك ملحظوش إنه مش مقيم معاكِ؟

قالت مي بمرارة : شوفت بقى؟ لما عرفت الحقيقة... نظرتك ليا اتغيّرت إزاي؟

قال مهاب منفعِلًا : هو إيه اللي بتقوليه ده؟ أنا حبيتك واتعلّقت بيكِ، وحسّيت أخيرًا إني مبسوط وهبدأ حياة جديدة... تيجي بكل سهولة تقوليلي أنا مش لوحدي!

قالت مي : أنا عارفة إني مهما أقول إنك مش هتصدقني؛ أنا كل حياتي غلط من الأساس؛ طول عمري مبعرفش أخذ قرار حتى لما جالي واتقدّم وأنا مكنتش مرتاحة... أهلي قالولي : لا، هتتعودي عليه وأنا للأسف استسلمت.

أنا مكنش عندي مشكلة أعيش مع شخص مبيحبّنيش... لكن ده مش شايفني أصلًا؛ كل اللي فارق معاه إن أهله وأهلي ميعرفوش حاجة عن علاقتنا.

بس كل كلمة قلتها ليك كانت حقيقية... أنا بس كنت خايفة؛ كنت خايفة تشوفني (أم) قبل ما أكون (ست).

أنت متعرفش حاجة عني... أنا عشت سنين بحاول أنقذ حياة انهارت؛ ولما لقيتك حسّيت لأول مرة إن حد شايفني، وإني لأول مرة بعمل حاجة أنا عايزاها مش مفروضة عليّا؛ ومحدّش يعرف علشان هو طلب كده؛ لما عرفت إنه بيخوني أكتر من مرة، مش عايز صورته تبقى وحشة قدّام الناس لكن قدّامي أنا... مش فارقة.

تمسح دموعها بعنف : دلوقتي القرار عندك... لو شايفني غلط، أقدر أستحمل حكمك؛ بس مش هقدر أستحمل إنك تشوفني كدّابة لأني كنت بدافع عن آخر حاجة باقية ليا... عن نفسي.

كانت كلماتها تمشي على جراحه... صادقة، منكسرة، تائهة بين الخوف والرجاء؛ ظل صامتًا يحاول أن يلملم ما تبعثر في رأسه.

بعد لحظات طويلة قال : كنتِ خايفة من حكايتي معاكي... ولا من حكايِتك أنتِ؟

أجابت والدموع تلمع في عينيها : من الحكايتين

ظل واقفًا في مكانه للحظات، يُحدِّق في الفراغ أمامه بعد أن غادرت... كأن الهواء ما زال يحتفظ بصدى صوتها؛ شعر أن الأرض تدور من تحته ببطء، وبأن شيئًا في داخله قد انكسر بصمتٍ لا يُسمَع؛ ذهب إلى المنزل وجلس على أقرب مقعد، ألقى رأسه بين كفّيه محاولًا أن يستوعب ما حدث.

تتـزاحم الصـور فـي ذهنـه : ضـحكتها، وعودهـا، تلـك اللحظـات التـي ظنّهـا حقيقيـة... كلها تمر أمامه كفيلم يُعرَض للمرة الأخيرة.

كـان يشـعر أن المنـزل أصـبح أصـغر ممـا كـان... وأن السـقف العـالي أصـبح قريبًـا لدرجـة أنـه لا يسـتطيع التـنفّس؛ يحـاول أن يعيـد ترتيـب مـا حـدث... لكـن كـل مـا وجـده صـمتًا كثيفًـا يلتـف حولـه؛ ثـم أطبـق عينيـه كمـن يطفـئ آخـر ضـوء فـي غرفـة امـتلأت بالخيبة.

كانـا يسـيران معًـا فـي ممـر ضـيق تملـؤه المرايـا، وكلمـا التفـت إليهـا رأى وجهًـا مختلفًـا يـنعكس خلفهـا؛ مـرة وجههـا الطفـولي، ومـرة امـرأة غريبـة تبتسـم فـي حـزن، ومـرة أخـرى ظل بلا ملامح.

وحـين حـاول أن يمسـك يـدها... تراجعـت بخفـة وقالـت : مـش كـل اللـي تشـوفه حقيقي... ثم اختفت.

لـم يسـمع سـوى صـوت خطواتهـا تبتعـد فـي الظـلام... متبوعًـا بضـحكةٍ خافتـة تُشـبه البكاء.

اسـتيقظ بعـدها وهـو ينـادي اسـمها... لكـن الغرفـة كانـت غارقـة فـي السـكون؛ أيقـن أنـه حلـم مـن أحلامـه المزعجـة، مجـرد عبـث مـن خيالـه المتعـب؛ لكنـه حـين التفـت نحـو

النافذة... رأى شيئًا غريبًا : انعكاسها على الزجاج كما كانت في الحلم، واقفة خلفه بنصف ابتسامة قبل أن يتبدد ظلها مع أول خفقة جفن.

جلس على السرير متجمّدًا، يمرّر أصابعه على وجهه في ارتباك ليتأكد من أنه مستيقظ؛ وما إن حاول أن يهدأ بعد الحلم حتى انطفأ كل شيء من حوله فجأة.

صوت طَقّة خافتة تردّد في الصمت وتبعها ظلامٌ كثيف ابتلع الغرفة بأكملها... انقطعت الكهرباء.

حاول أن يفهم ما يحدث بينما العتمة تمد يدها لتُغلق على أنفاسه؛ مد يده نحو الطاولة، يتحسس هاتفه، وحين أمسكه... أضاءت شاشته وحدها دون أن يلمسها، لون أزرق باهت غمر المكان للحظة، نظر إلى الشاشة... لا إشعار، لا مكالمة، لا شيء... فقط ضوء ينبض وثم ينطفئ ببطء.

شعر بوخز غامض في صدره كأن الحلم لم ينتهِ بعد... بل امتد إلى يقظته؛ نهض من السرير بخطواتٍ مترددة، يبحث عن شيء يبدد هذا الظلام؛ اتجه نحو المطبخ، فتح أحد الأدراج، وبين الأدوات المبعثرة لاحت له قطعة معدنية صغيرة؛ مدَّ يدَه وسحبها...

كانت كشافًا يدويًا صغيرًا أسودَ اللون، عليه كلمة صغيرة باللغة الإنجليزية. مرَّر إبهامَه على الكلمة كأنه يتحقّق من وجودها.

لا مجال للخطأ، إنه نفس كشاف مي.

تسلّل البرد إلى أطرافه، ومعه إحساس غريب بأن ما كان يراه في أحلامه لم يكن محض خيال؛ وبينما هو ما زال يحدّق في الكشاف الصغير، دوّى صوتٌ مفاجئ في الصمت.

رنين الهاتف

التفت نحو الطاولة، حيث كان الهاتف، ليجد اسم " ليلى " أخته على الشاشة؛ تردّد لحظة في أن يجيب، ضغط على زر الإجابة ببطء وقرب الهاتف من أذنه...

- (ليلى؟)

لم يأتِه ردٌّ واضح؛ فقط صوتُ تنفّس متقطّع، ثم همسات خافتة متداخلة مع تشويش يشبه صفيرَ الريح.

فجأة اخترق السكون صوتُها، لكنه لم يكن صوتها كما يعرفه؛ كان أضعف، أبعد، كأنها تتحدث من مكانٍ لا ينتمي للعالم الذي يقف فيه : (خليك معايا... يا مهاب خليك معانا...)

تداخلت الأصوات، وتشوهت الكلمات، حتى صار يسمع أنينًا خافتًا ثم شيئًا يشبه بكاءً مكتومًا؛ ثم صمتٌ تام...

رفع الكشاف بيده المرتجفة، موجّهًا ضوءه نحو الممر المؤدي لغرفته...

في آخر الممر انعكس الضوء على شيءٍ لامع... سلسلة ذهبية يعرفها جيدًا؛ كانت سلسلتها، معلَّقة على مقبض الباب، كأن أحدهم وضعها هناك للتو.

في اليوم التالي لم يذهب إلى عمله؛ تلك الأحداث أفقدته توازنه، وأراد أن يستوعب كل ما مرَّ به.

يشرب قهوته في الشرفة، ولا ينظر ناحية شرفتها ولا يكترث لها؛ رنّ جرس الباب، فتح... فوجدها أمامه، واقفةً منكّسة الرأس، لا تستطيع النظر إليه.

قالت بصوت منخفض : ممكن أدخل؟ أنا عندي كلام مهم...

أشار بيده أن تدخل؛ أغلق الباب وجلس أمامها صامتًا كالحجارة.

مي : أنا مش جاية أعتذر وخلاص، أنا جاية أقولك إني اتكلّمت مع بابا الولاد وطلبت الطلاق رسمي؛ أنا أصلًا عمري من وقت ما سيبنا بعض ما اتكلّمت معاه في الموضوع ده، علشان كنت بقول إنه من حقه يشوف ولاده في بيته أي وقت؛ طبعًا هو استغرب جدًا... بس بصراحة ما اعترضش.

سألني : هو في حدّ في حياتك؟

طبعًا ما ردّتش عليه... وقلت له ده حلّ أحسن لينا إحنا الاتنين؛ وهيِجي الأسبوع الجاي إجازة ويخلّص التفاصيل دي.

مهـاب : بـس أنـا مـا طلبـتش منـك إنـك تطلقـي، وتعملـي كـل ده! أنـا أصـلًا مكنـتش أعرف حاجة عن حياتك!

مـي : أنـا مـبعملش كـده علشـانك أنـت بـس... أنـا بعمـل كـده علشـاني أنـا؛ مـش هضـيع اللي باقي من عمري مع شخص ما بيحبّنيش ومش شايفني.

عينـاه ثابتتـان عليهـا؛ لا ابتسـامة، لا انـدهاش، لا كلمـة واحـدة؛ كـأن الخبـر اصـطدم بجـدارٍ داخلـه لا يمكـن تجـاوزه؛ هـو يسـمعها... لكنـه لا يسـتقبل؛ كـل شـيء تجمّـد للحظة : الزمن، والهواء، وحتى نبضها.

بعـد ثانيـةٍ طويلـة... شـيح بنظـره عنهـا بـبطء، كـأن فـي قلبـه شـيئًا لـم يُقَـل؛ لا يـردّ... لا يقتـرب... ولا يمنعهـا حـين تسـتدير لترحـل؛ فقـط يتـنفس بعمـق بعـد مغادرتهـا، نظـرة فارغة نحو الأرض، وتنهيدة ثقيلة تحمل كل ما لم يُقَل.

كـان يسـير فـي ممـر طويـل، جدرانـه ملسـاء مغطـاة بضـوء أبـيض بـارد لا يُعـرَف مصـدره؛ كلمـا خطـا خطـوة، سـمع صـدًى لأقدامـه يتضـاعف، حتـى بـدا كـأن أحـدًا يسـير خلفـه، لكنـه حـين يلتفـت لا يـرى أحـدًا؛ فـي نهايـة الممـر بـابٌ نصـف مفتـوح، يتسـلل منـه ضـوء دافـئ يشـبه الشـمس؛ يقتـرب... يسـمع صـوتها؛ ضـحكتها القديمـة؛ نداءها الذي يعرفه.

يمد يده إلى الباب، لكن أصابعه تمرّ خلاله كأنه دخان.

الضوء يخفت فجأة، ويتحوّل الممر إلى ظلام؛ ثم يظهر على الجدار أمامه ظِلُّه، لكنه يتحرك قبل أن يتحرك هو؛ يلتفت إليه، ويرفع يده، يشير إلى الأعلى...

فينظر للأعلى، فإذا بسقف الممر يتحول إلى سطح ماء ساكن، يرى فيه وجهه مغمورًا، عيناه مفتوحتان لا ترمشان؛ ويرى السلسلة الذهبية حول رقبتها.

يحاول أن يلتقط السلسلة ويتحسسها، لكنه لا يستطيع؛ يصرخ دون صوت... يركض، لكن الأرض تبتل تحت قدميه، والماء يصعد ببطء حتى يغمره تمامًا.

آخر ما يسمعه قبل أن يغرق... صوت أجهزة بعيدة، صفير متقطع، كأن أحدًا في مكان آخر يُحصي أنفاسه الأخيرة؛ ثم هدوء تام، وهمسٌ خافت يأتي من بعيد : (مهاب... خليك معايا)

يفتح عينيه ببطء؛ لكن هذه المرة لا يرتعب... لا يلهث... ولا ينهض فجأة كما كان يفعل؛ يجلس في صمتٍ ثقيل، ينظر إلى الفراغ أمامه، كأنه ينتظر شيئًا يعرف أنه سيأتي.

في اليوم التالي يخرج إلى الشرفة، يجدها واقفة في مكانها، لا تُصدر صوتًا حتى لا تنتبه لوجوده؛ تنظر للأسفل، تلوّح بيديها لابنتها الصغيرة وأخيها... كانا بصحبة رجل لم يره من قبل...

تلتفت ناحيته... تبتسم له بحبّ كأن شيئًا لم يكن.

تقترب من الشرفة وتقول : الولاد خارجين مع باباهم... هيودّيهم عند عمتهم يقضّوا اليوم؛ وهيجيب المأذون والشهود... ويجي عليّ.

كانت ترتدي فستانًا أزرق أنيقًا، يبرز جمالها أكثر؛ كانت تقول كلماتها تلك مرةً وعيناها فيهما بريق وسعادة ورجاء... لم يرهما من قبل.

كانت عيناها تقول له : أرجوك... لا تتركني.

لم يكن في صوته عتاب، ولا في ملامحه بقايا غضب ؛ همس فقط : (سامحتِك خلاص) كلمة خرجت منه خفيفة، لكنها حملت معها كل وجعه القديم.

نظر إليها طويلًا، ثم أضاف بصوتٍ أكثر دفئًا أقرب إلى وعد لا يحتاج إلى قسم : أنا هنا... ومش هبعد تاني.

ابتسم ابتسامة صغيرة، نصفها حزن ونصفها راحة، كأن غفراته لم تكن لها فقط، بل لنفسه أيضًا ؛ ودعته بعيون طفلة صغيرة تنتظر الحلوى، عيناها يملؤها السعادة...

لا يذكر كم مرّ من الوقت حتى سمع ضجيجًا خفيفًا، وصوت أنين مكتوم، تذكر حادثة القطة، وقال في نفسه : هستعد لعملية إنقاذ تانية.

ولكن الصوت أصبح أقرب ومزعج أكثر، جرى ناحية الشرفة ليجد حبيبته تقف على الحافة، وشعرها يتطاير، ووجهها متجمّد بين الرجاء والرعب.

خلفها ظل ثقيل لرجل يتحرك بسرعة، يمد يده نحوها، يدفعها بقسوة...

يمد يده ليفتح زجاج شرفته بعدما تجمد من المشهد؛ صرخة قصيرة تخترق الليل، ثم صمت طويل...

يتجمد مكانه، عيناه تتسعان، لا صوت يخرج؛ كل ما سمعه ارتطام مكتوم، وأصوات تتزاحم في الأسفل يصرخون : اطلبوا الإسعاف... الست رمت نفسها.

صوت صفير الأجهزة الطبية يعلو شيئًا فشيئًا؛ ضوء أبيض قوي يخترق الظلام الذي عاشه لوقت لا يعرفه؛ جفناه يرتعشان، ثم يفتح عينيه ببطء؛ ضباب يغطي رؤيته أولًا، ملامح باهتة تتحرك من حوله، وصوت من بعيد يقول : فاق الحمد لله.

يحاول أن يتنفس، صدره يعلو ويهبط، عيناه تبحثان في الوجوه التي لا يستطيع أن يميزها؛ تمر لحظات قبل أن يدرك أنه في المستشفى، تلك المرة كان كل شيء حقيقيًا، ليس حلمًا من أحلامه المزعجة.

الضوء، رائحة المطهر، الأجهزة، الأنبوب في يده، كل شيء حقيقي هذه المرة.

صوت ناعم يخترق الضباب : (ماما... ماما، مهاب فاق)

يلتفت بصعوبة، يرى وجه أخته مبللًا بالدموع، تحتضنه وهي ترتجف : حمد الله على سلامتك يا حبيبي.

ثم يرى أمه، تجلس إلى جواره، تمسك بيده بكل ما تبقى فيها من خوف وحنان.

عيناها محمرة من السهر والبكاء، لكنها تبتسم له برفق مطمئن وهي تقبّل يده وتقول: (أخيرًا رجعت لنا)

يحاول أن يرد، لكن صوته يخونه؛ كل ما يستطيع فعله هو أن يبتسم، بعينين تائهتين بين الحقيقة والذكريات؛ ثم وهو ينظر إلى أمه يلمح عند عنقها السلسلة الذهبية التي كانت ترتديها حبيبته في الحلم، نفس النقش، نفس البريق الذي لا يُخطئه؛ يتذكر أن تلك السلسلة لم تفارق عنق والدته يومًا؛ تتلاحق أنفاسه وهو يرمق السلسلة، كأن شيئًا خفيًا يربط كل ما عاشه بتلك اللحظة؛ تربّت أمه على كتفه بحنان، وعلى لسانها كل عبارات الشكر والدعاء...

يفتح عينيه من جديد، ينظر إلى أمه بابتسامة هادئة، تمتزج فيها الدهشة بالطمأنينة؛ ويمسك يدها بقوة خفيفة، كأنه يتمسك بالحياة أخيرًا.

كانت السيارة تسير ببطء في طريق العودة، ضوء الغروب يتسلل عبر الزجاج الأمامي، ينعكس على وجهه الشاحب؛ لم يتكلم طول الطريق، فقط كان يراقب الشوارع والمحال، كأنه يراها لأول مرة؛ كل شيء يراه يذكره بالحلم الذي عاشه.

وصلوا إلى البيت

فتحت الأم الباب وهي تقول بابتسامة متعبة : أخيرًا رجعنا بيتنا... نورت البيت يا حبيبي، ياريتك تعرف كنت بدعي قد إيه اليوم ده ييجي.

يدخل بخطوات هادئة، يشم رائحة المكان التي تحمل مزيجًا من البخور والمسك؛ يجلس على الأريكة، يمرر نظرة على الجدران، الصور، صورة جدته وهي صغيرة؛ كان في تلك اللحظة يعرفها جيدًا، هي حبيبته (مي) يقترب من الصورة المعلقة ليجد مكتوبًا تحتها بخط خفيف : (مشيرة هانم السيد)

تلاحظ أمه صمته، تجلس بجانبه، تضع يدها على رأسه بحنان : لسه تعبان؟

يهز رأسه نافيًا، ثم يوجه نظرة إلى السلسلة حول عنقها؛ يتردد قليلًا، ثم يسأل بصوت هادئ لكنه مشحون بالفضول : ماما.. هي السلسلة دي أنتِ مبتقلعيهاش خالص صح؟

تبتسم ابتسامة خفيفة، تلمسها بيديها كأنها تخاف عليها من الزمن : من بعد ما جدتك ماتت كنت بحس إنها بتطمني وأنا لابساها، كنت بحس إنها حواليا وحضناني.

تحاول أن تغيّر الموضوع وتقول له : يعني مسألتش إيه حصلك ولا دخلت في الغيبوبة دي إزاي؟ إيه... كنت مبسوط ومرتاح مننا؟! سيبنا هنا هنتجنن!

يبتسم وهو يحاول التذكر : أنا آخر حاجة فاكرها، إني رحت بيت تيتا أجيب لك الورق اللي أنتِ عايزاه، وكان في مكتبة عالية، لقيت زي برواز طالع منها فوق، طلعت على السلم أجيبه، وبعد كده مشفتش حاجة.

تنظر إليه أمه وعيناها مملوءتان بالدموع : يا حبيبي متفكرنيش... أنا السبب... يارتني ما بعتك هناك.

أنت لما اتأخرت قلقنا عليك، أنا وأختك فضلنا نكلمك مبتردش؛ بنفتح البيت لقيناك واقع على الأرض وغرقان في دمك، وحاضن صورة جدتك؛ أنت وقعت وقعة جامدة قوي، والمكتب حروفه نحاس، دماغك مستحملتش؛ الحمد لله إننا روحنا في الوقت ده... حمد الله على سلامتك.

أنا هدخل أحضر لك الأكل، بقالك شهرين وشوية عايش على المحاليل؛ تعالى أدخلك أوضتك تستريح شوية.

يضحك بصعوبة : أنا بقالي كتير قوي مستريح.

ترد : آه بس كنت بتستريح إجباري؛ هخلص الأكل وأجيلك على طول.

لقد افتقد سريره بالفعل؛ كل الفترة التي مرت عليه كانت مليئة بالأحداث، إنه لم يشعر بغيبوبته، لكن من حوله هم من شعروا.

لمس بيده أطراف السرير، الملاءة التي كانت آخر ما شعر به قبل الغياب الطويل، الآن تبدو كأنها تعانقه بعد فراق مؤلم؛ استلقى على سريره بهدوء، وأغمض عينيه؛ لم تكن مجرد لحظة راحة، بل لقاء جسد أنهكته الأجهزة، وروح اشتاقت للسكينة.

استمع إلى صوت تنفسه، كأنه يسمعه لأول مرة، وتسلل دفء البطانية إلى جسده كهمس الحياة؛ في قلبه مزيجٌ من الامتنان والرهبة؛ امتنانٌ لأنه عاد، ورهبةٌ لأن كل شيء يبدو وكأنه ينتمي لعالمٍ آخر، عالمٍ تركه منذ شهور ولم يكن يعلم متى سيعود إليه؛ مع كل نفسٍ بدأ يشعر بالطمأنينة تتسلّل إلى أعماقه حتى إن جفونه بدأت تثقل ثانيةً.

تسقط رأسه على الوسادة، ويغلق عينيه بتعب؛ ضوءٌ ناعمٌ يغمر المكان... هي نفس الغرفة، لكنها أكثر دفئًا، بها شيءٌ مريح أكثر، والهواء مشبعٌ برائحة الياسمين؛ تقف هي أمام النافذة، بنفس الفستان الذي كانت ترتديه يوم رحيلها، وابتسامتها الحنونة تملأ وجهها.

مهاب (مندهشًا) : أنتِ لسه موجودة؟ أنا افتكرت إني مش هشوفِك تاني... ولا أنا لسه نايم؟

مي بصوتٍ خفيض : ماتدوّرش على الفرق بين الحلم والحقيقة يا مهاب... أنا هنا علشان أطمنك.

مهاب : أنا شفت كل حاجة... أنا كنت موجود بس معرفتش أساعدك.

مي : بالعكس... أنت حرّرتني؛ بس ماتخليش حد يسرق سرّنا... " **بعض الحقائق لا تُقال... تُصان بالصمت** "

يتقدم نحوها، لكنه كلما اقترب تتلاشى أطرافها كالدخان، يمد يده فلا يلمس سوى هواءٍ بارد؛ ينادي عليها بصوتٍ مخنوق : ماتمشيش تاني... خليكي معايا.

يسمع همسها من بعيد : أنا حرة الآن... وأنت كمان لازم تبقى حر...

يستيقظ فجأة على صوت أمه قادمة بصينية الطعام، وقد وضعت بجانبها بتلات الياسمين... أشمّ الرائحة، أشعر بأنني ما زلت في الحلم.

تنظر إليّ أمي وهي تطعمني كطفل صغير، وعيناها لا تصدّقان أنّي عُدت من جديد؛ تتحدث إليّ كثيرًا، وأنا لا يدور في عقلي إلا سؤال واحد؛ ما إن توقفت عن الحديث لثوانٍ لتلتقط أنفاسها حتى أمسكتُ يدها وباغتّها بسؤال وأنا أنظر في عينيها : هي ماتت إزاي؟

– تقصد مين؟

– جدتي... ماتت إزاي؟ أنا عمري ما سألتِك، بس اللي فاكره منك إنها ماتت صغيرة قوي... صح؟

تتغيّر ملامحها قليلًا، ثم صمتٌ قصير، وتقول بحزن وشفاه ترتعش :

هتصدقني لو قلت لك معرفش ماتت إزاي؟ أنا اليوم ده فاكراه كويس قوي بكل تفاصيله؛ فاكرة ماما كانت مبسوطة إزاي وشكلها حلو قوي، وكانت لابسة فستان أزرق شيك جدًا، ولبستني فستان حلو زيها، وسرّحت لي شعري أنا ومحمود، وفضلت تبوس فينا كأنها بتودّعنا... مع إننا كنا رايحين نزور طنط روحية (عمتي) زيارة عادية.

وأنا تحت العمارة نادتني أنا وأخويا، وقعدت تشاور لنا من فوق... كان شكلها فرحان قوي؛ بس بابا كان اليوم ده مكشّر ومتعصّب يدوب وصلنا عند طنط روحية ونزل بسرعة.

أنا وقتها كان عندي ٨ سنين، ومحمود ٦... بس أنا فاكرة كل حاجة؛ دموع عمّتي وحضنها لينا، القلق اللي حصل اليوم ده، وأنا مش فاهمة بس حاسة إن في حاجة غلط.

اليوم ده نمنا عندها، ودي كانت حاجة عمرها ما بتحصل... إن أمي تسيبنا نِبات بره؛ كنت فرحانة زي أي طفلة، بس اليوم ده كنت خايفة... فضلت حاضنة محمود لحد ما النهار طلع.

مبقاش ينفع يخبّوا علينا أكتر من كده؛ كل العيلة لابسة أسود، وكلهم بيبصولنا بنظرات العطف والشفقة؛ أنا مهتمّتش ماتت إزاي قد ما بقيت أسأل نفسي... هنعمل إيه من غيرها؟

بقيت أسمع كلام كتير، بس أكتر رد ريّحني كان بتاع جدتي الله يرحمها... قالت لي : ماما نامت ومصحيتش

عارف إن بعدها بابا مات بعد كام يوم... بيقولوا مقدرش يستحمل صدمة موتها؛ **الحب الكبير بيكسر صاحبه أوقات**... دي برضه كانت كلمة جدتي بعد ما بابا توفّى.

لم يقاطعها، وتركها تقول كل ما بداخل قلبها، وخصوصًا أنها أول مرة تتحدث عن وفاة جدتي.

– الله يسامحك يا مهاب... أنا مش عارفة إيه اللي فكرك دلوقتي... قلبي بيوجعني قوي لما بفتكر اليوم ده.

– مهاب : أنا آسف يا ماما... معلش، أنا راجع عندي حنين وفضول لكل حاجة، مش قصدي أفكّرك بذكريات صعبة وحكايات مش حلوة.

– الأم: لا يا حبيبي... حكايات مش حلوة إزاي؟ دي قصة حبّهم كانت تنفع تتعمل فيلم.

يسند ظهره للخلف، ينظر للسقف طويلًا؛ كأن الكلمات تضرب في داخله جدارًا يعرفه جيدًا... جدار الكذب الهادئ؛ يتذكر في حلمه صوتها، صراخها، عينها المذعورة.

يهمس بصوت خافت لا تسمعه هي : بس أنا كنت هناك...

تلتفت نحوه : بتقول حاجة يا مهاب؟

يهزّ رأسه بابتسامةٍ مصطنعة : لا... ولا حاجة.

عيناه معلّقتان بالسلسلة... تلمع مع حركة الضوء كأنها تنبض بذكرى لا تريد أن تُدفن!

كان يعلم أجزاء من قصة جدّه وجدّته، من حكايات أمه... لكنه بات الآن يعلم الحقيقة كاملة؛ لماذا لا تحب أن تتكلم عنهما، ولا تحب أن نذهب إلى منزلهما؛ كان يعلم ما تحكيه فقط... أو ما كانت تريد أن يعلمه الجميع.

أسئلة تدور في رأسه ولا يستطيع الإجابة عليها :

هل ما رآه حقيقي؟

هل قتل جدُّه جدّته فعلًا؟

هل تعلم أمي الحقيقة؟ أم أنها كانت صغيرة حينها؟

يقف ويتجه نحو النافذة، ينظر إلى السماء، الريح تحرك ستارة الغرفة يسمع صوتًا من بعيد : **الحقيقة مش دايمًا للكل...**

يفزع لهذا الصوت ويلتفت حوله ليجد مصدره...

يبتسم وهو ينظر إلى السماء مع وعدٍ أنه لن يخبر أحدًا بشيء.

***

القصة الرابعة

ولاده

بسم الله الرحمن الرحيم

المعرض لم يزدحم بعد، ولكن وقع خطوات الحضور تُسمع من بعيد، وتتقاطع فيه الهمسات، والعيون تائهة بين الألوان؛ لكنهم جميعًا دون اتفاق، توقفوا أمامها اللوحة الكبيرة المعلَّقة على الجدار، ذات الإطار الذهبي اللامع، والضوء المسلَّط عليها بعناية.

(امرأة تقف وسط دوامة من الألوان، في عينيها حُزْن لا يُنكَر، تخرج منها امرأة تُشبهها ولكنها تزدهر من الداخل، وحولها زهور وفراشات صغيرة تدور حولها، وفي ابتسامتها شفاء لا يُقاوَم)

لم يقرأ أحد العنوان بعد، ولكن كانت الأعين معلَّقة تبحث عن كلمات تختصر هذا الخليط العجيب من الألم والنور.

وقفت لميس على بُعد خطوات، وهي تراقب الانبهار في أعين الناس؛ هذه ليست مجرد لوحة، هذا اعتراف بالانتصار، وثيقة تؤكد أنها مرَّت من الحب، من خيبته، من الانكسار، ولم تعد كما كانت، بل عادت أقوى.

اقتربت منها سيدة خمسينية وقالت : من رسمها؟ يبدو أنها تعرف تمامًا كيف يبدو الشفاء.

ابتسمت لميس في رضا وقالت : ليس شفاءً وحسب، فتلك اللوحة اسمها (ولادة)، ولادة جديدة لكل شيء.

ما إن أنهت جملتها، حتى انسحبت السيدة، تاركة لميس تقف أمام لوحتها من جديد؛ تنظر إلى لوحتها كأنها تراها لأول مرة، رغم أنها كانت هي من رسم كل ضربة فرشاة فيها...

(قبل سنتين)

(لو كان لي قلبان لعشت بواحدٍ وتركت واحدًا في هواك معذَّبًا)

تسمع الأغنية الصادرة من راديو جارهم في الشرفة، وهي تتقلَّب على سريرها في كسل؛ تضحك على كلمات الأغنية وتقول : ونبي أنا لو ليا قلبان كنت هحب نفسي مرتين.

تنهض لميس من سريرها وهي تنظر في تليفونها، لتجد أن الساعة قرُبت إلى العاشرة، فتحاول أن تُسرع، ولكن دون أن تتوتر، فهي تحاول أن تحافظ على هدوئها وخصوصًا في هذا اليوم... فاليوم هو معرضها، ليس أول معرض تُقيمه، ولكنها تشعر في كل مرة أنها أول مرة.

عندما تنظر إلى رسوماتها تكاد تفهم أو تقرأ اللوحة، هل اللوحات تُقرأ؟

نعم تُقرأ إذا كانت تريد أن تقول شيئًا، كل لوحة تُعبِّر عن حالة تجد نفسك بداخلها، كأنها اقتحمت عقلك، وأعادت رسمه من جديد مثل لوحاتها.

بعد انتهاء المعرض، كما تعودت، تذهب إلى مقهًى بجانب صالة العرض، اعتادت أن تجلس فيه بعد كل معرض؛ وهي جالسة تستمتع بقهوتها، وجدت رجلًا ينظر إليها بقوة، تكاد تخترقها، تمالكت نفسها ونظرت إليه في لامبالاة، وأشاحت عنه بنظرها، ولكن دق قلبها بعنف عندما التقت عيونهما.

من هذا الرجل ذو النظرات القوية؟ لماذا ينظر لي هكذا؟ لن أهتم، سأشرب قهوتي وأغادر؛ لم تنهِ فنجان القهوة حتى وجدته أمامها، يقترب بخطى واثقة، لم يتردد، لم يتلعثم، كانت في نظراته راحة الواثقين، وفي صوته نبرة هادئة كأنها اعتادت الدخول على القلوب بلا استئذان.

– حضرتك أستاذة لميس صح؟

ردت في ارتباك : أيوة أنا، مين حضرتك؟

أنا آدم، مهندس ديكور وعاشق للفن، ولِسَّه كنت في المعرض بتاعك، تسمحي لي أقعد؟

نهضت وهي تقول معتذرة : أنا آسفة جدًا، أنا عندي ميعاد، ومش هقدر أتأخر، بس مدام حضرتك عاشق للفن زي ما بتقول يبقى هنتقابل تاني قريب.

نظـر إليهـا فـي ثبـات أربكهـا، وأخـرج مـن جيبـه كـارت وقـال : تمـام، الكـارت ده فيـه أرقـامي لـو احتـاجتي حاجـة، فـي مجـال الـديكور، أو لـو عملتـي معـرض قريـب يـا ريـت تكلِّميني.

ارتبـاك اللحظـة كبَـت كـل كلمـة كانـت تريـد أن تقولهـا، فاكتفـت بابتسـامة خفيفـة، ومضـت؛ عـادت إلـى منزلهـا وهـي تفكِّـر فـي هـذا الشـخص الـذي اقـتحم خصوصـيتها، أُعجبت بشجاعته، بصفاء حديثه، بطريقة حضوره الذي لا يشبه ادعاء الآخرين.

جلسـت فـي صـمت وهـي تقلـب البطاقـة بـين يـديها، وكأنهـا تبحـث بـين الحـروف عـن معنى أعمق، أو تبرير لذلك الشعور الغريب الذي بدأ يتسلل إلى قلبها.

لـم تكـن تعرفـه، ولا تعـرف إن كانـت سـتلتقيه مـرة أخـرى... لكنهـا فكـرت. فكـرت كثيـرًا. أكثر مما توقعت؛ وهذا وحده كان كافيًا ليدل على أن شيئًا ما قد بدأ.

تـذهب إلـى المقهـى، تجلـس وتنظـر حولهـا، لعلـه يظهـر مـرة أخـرى؛ كيـف يختفـي هكـذا؟ إذا كـان معجبًـا بـي كـان يجـب أن يظهـر؛ تضـحك علـى نفسـها وتقـول : معجب بي! ده هو ما قالش أي شيء، ده قال عاشق للفن.

كـل ليلـة تمسـك تليفونهـا وتكتـب الأرقـام، ثـم تمحوهـا مـرة أخـرى سـريعًا حتـى لا تضعف...

في يوم أخذت نفسًا عميقًا وضغطت زر الاتصال.

رن الهاتف مرة...

ثم مرة أخرى...

وفي الثالثة جاء صوته : ألو

ترددت لحظة ثم أجابت بصوت خافت، لكنه يحمل نبرة مميزة، نبرة تمتزج بين الخجل والقلق...

– مساء الخير، أنا آسفة لو الوقت مش مناسب، أنا لميس... لميس الرسامة.

صمت قصير على الطرف الآخر ثم قال :

– كنت أتمنى إنك تتصلي... الحقيقة، كنت مستنيكي.

ارتبكت وخرجت منها ضحكة خفيفة من بين شفتيها؛ المهم بقى أنا كنت عايزة أقولك إن في معرض جديد، الأسبوع الجاي، هبعتلك كل التفاصيل على الواتس آب، لو فاضي تعالِي.

آدم : لو فاضي؟ ده أنا حتى لو مشغول لازم أجي، أنا قلت لك قبل كده إني بحب الفن.

لميس : خلاص هستناك.

أغلقت الهاتف وهي تضحك وتتذكر كلماته ونبرة صوته المطمئنة؛ ما هذا الذي أشعر به؟ لماذا هذا الشخص بالذات؟ مع أنه لم يظهر لي أي شيء، ولكني أشعر أنه سيظهر قريبًا.

جاء يوم المعرض وذهبت مبكرة كعادتها، تنتظر الحضور، لكنها كانت تنتظر شخصًا واحدًا فقط؛ حتى وجدته، دخل بخطوات واثقة، ولكن بعينين تبحثان عن شيء مألوف وسط عوالم الألوان؛ تأمل اللوحات واحدة تلو الأخرى، يطيل الوقوف أمام كل عمل وكأنه يحاول قراءة ما وراء اللون، ما وراء الخطوط؛ حين وصل إلى الزاوية الأخيرة، كانت واقفة هناك، تراقبه من طرف المعرض دون أن تقترب حتى التقت عيونهما، فبادر بالتحية واتجه إليها... كان هذا اللقاء بداية كل شيء.

كان أدم لطيفًا، متحدثًا لبقًا، يهتم بتفاصيل لميس جيدًا؛ كانت لميس في أمسّ الحاجة إلى هذا الاهتمام، فهي منفصلة، وحيدة، لا يوجد في حياتها غير لوحاتها؛ أغرقها اهتمام وحب.

كانت تقول في نفسها : كنت أظن أنه لا يوجد رجل يعرف أن يُحب، حتى التقيت بأدم.

مكالمات حتى الفجر، وبعد ما يغلق معها تتفاجأ باتصال آخر بعد ساعة، ليقول لها إنه حنَّ لسماع صوتها، ولهفة في الاطمئنان عليها وكأنها ابنته وليست حبيبته.

استمع إليها باهتمام لا يُقاوم، كما لو أن تفاصيلها الصغيرة كانت تعني له العالم بأسره، تذكر ما تحب وما تكره، أدهشها بقدرته على فهمها، وتسلل إلى أعماقها دون أن تشعر؛ يطلب لها ما تأكله فهو يعلم ما تحب، يطلب لها القهوة بدون سكر، فتذوب هي من اهتمامه.

تتذكر في لقاء قريب لهما أنها دخلت عليه وهو منتظرها، وعندما رآها...

أدم : إيه المواعيد دي؟ ينفع كده؟

لميس : مواعيد إيه؟ ده عشر دقايق بالظبط!

أدم : طب وهما العشر دقايق دول شوية؟ أنتِ بتوحشيني قوي، ومش عايز أضيّع ولا دقيقة.

تضحك لميس في خجل وتقول : خلاص هقعد معاك ربع ساعة زيادة، إيه رأيك؟

أدم : خلاص موافق وهحاول أسامحك؛ أنتِ مخلتينيش أعدّي آخدك النهارده ليه؟

لميس : ما أنا كنت عند ماما ومش عايزاها تعرف حاجة دلوقتي، هتفضل تسألني أسئلة كتيرة وأنا مش عايزة حصار!

أدم : يا سلام! وهي مامتك مهتمة بيكِ أصلًا علشان تستجوبِك؟ ما أنتِ من ساعة ما اتطلقتي وأنتِ لوحدك.

لميس في ارتباك : أيوة إحنا كل واحد عايش في بيت، بس هي لسه أمي ومش هقدر أكسفها ولا أقولها : متدخليش في حياتي بشكل مباشر.

أحسَّ أن كلامه أزعجها فقام بتغيير الموضوع.

أدم : بقولك إيه... إحنا عندنا عيد ميلاد واحد صاحبي يوم الخميس، وطبعًا أنتِ كده كده معايا.

لميس : ده أنت مقرر خلاص! يعني مش هتاخد رأيي حتى؟

أدم : لا مش هاخد رأيك، أنا هاخدك أنتِ شخصيًا، ومن غير نقاش.

تضحك لميس مستسلمة : جاية معاك... وأمري لله.

أدم : بس بقولك إيه... أنا اللي هقول تلبسي إيه، وتعملي شعرك إزاي... كل حاجة أنا اللي هختارها.

لميس في استغراب : ليه؟ هو أنا ذوقي في اللبس مش بيعجبك ولا إيه؟ أنت ناسي كنت بتقعد تقولي : استايل لبسك يجنّن، وشعرك الكيرلي اللي دايمًا بحسه متمرد... أكتر حاجة لفتت نظري ليكِ!

أدم : ولسه رأيي زي ما هو... وزاد كمان، بس اليوم ده مهم قوي بالنسبة لي، كله مستني يشوف مين اللي قدرت تغيّر أدم وتختطفه من الدنيا كلها.

لم يعجب لميس طريقة حديثه في هذا اليوم، ولكنها تغاضت، فهو لم يخطئ معها من قبل، والتمست له العذر لعلّه خانه التعبير...

جاء يوم الخميس وذهبا معًا؛ تمشي بجانبه وهي تنظر إلى انعكاسها في المرآة، تعبث بخصلات شعرها، تسحب الفستان ثم ترفعه لأعلى مرة أخرى.

« أنا مش مرتاحة » تقولها بصوت خافت لا يكاد يُسمع.

يلتفت إليها سريعًا، يبتسم ابتسامة واثقة : متخافيش... أنا معاكِ.

« كل العيون علينا الليلة وخصوصًا أنا » تنظر إليه في استغراب، كل كلماته لم تُبنَ من طمأنة، بل من مرايا يرى فيها نفسه فقط؛ أما هي فبين صمتها ومحاولاتها لإخفاء عدم رضاها تدرك أن شيئًا ما ينقص... خرجت من عيد الميلاد وهي تشعر وكأنها غريبة في فيلم لا تعرف قصته.

كانت يداه متشابكتين بيديها، لكنها لم تشعر بدفئه، كان يبتسم ويضحك مع أصدقائه طيلة السهرة، يتباهى بعلاقته بها وكأنها وسام جديد يعلقه أمام الجميع، لا كأنها شخص يشعر.

كل شيء في السهرة كان يدور حوله : ضحكاته، قصصه، تعليقاته... كانت كأنها ظل، لم يقدمها للناس إلا بكلمات عابرة، كأنها تفصيلة لا تُذكر في صورة كاملة له.

كانت صامتة طول طريق رجوعهم، تحاول أن تفكك ما حدث؛ لم يكن قاسيًا، لكنه لم يكن حنونًا، لم يكن لئيمًا، لكنه لم يكن حاضرًا معها حقًا؛ مع هذا القناع الذي يرتديه، قناع العاشق المهذب، تركها الليلة ترى أول شق في هذا القناع؛ شعور ثقيل في صدرها بدأ يتسلل، وإحساس ببرودة يدٍ لا تشد عليها كما كانت تفعل سابقًا.

بعد أيام من عيد الميلاد اتفقا أن يتقابلا في نفس المقهى الذي صادفها فيه أول مرة.

تنظر إليه لميس بتمعّن، فنجان القهوة بين يديها وقد برد، بينما هو يتحدث في الهاتف بصوت مرتفع، يضحك، وينظر إليها بين الحين والآخر بنظرات لا مبالية... (ينهي المكالمة أخيرًا... يلتفت إليها)

أدم : آسف... بس كان لازم أرد. صاحبي من زمان ومكنش ينفع أتجاهله.

لميس : سبحان الله! ده أنت كنت زمان بتقفل تليفونك وأنت قاعد معايا، ومكنتش بتخلّيني أرد على ماما ولا على أخويا اللي بيكلمني من كندا، وتقولي : مش عايز حد يخدك مني، لما تبقي لوحدك اتكلمي، صح ولا أنا نسيت؟

أدم : أنا كنت بقولك متردّيش علشان أنتِ كنتِ طول الوقت بتشتكي منهم وبتقولي أد إيه إنهم مش حاسين بيكِ... من الواضح بقى إنك أنتِ اللي بتنسي مش أنا.

وعمومًا يا ستي حقك عليّا... مش هارد على أي تليفونات، ووقتي كله ملكِك؛ تندهش من قدرته على تحويل كل شيء لصالحه.

لميس : يا أدم أنا حاسة إنك متغير من ناحيتي... كل يوم بحال... مبقتش فاهماك.

أدم : أنا اللي مش عارف مالك! أنتِ لما بتبقي مشغولة عني بشغلك عمري ما بزعل، بالعكس بشجعك... لازم تقدّري إني أنا كمان هبقى مشغول، مش فاضي ٢٤ ساعة.

وعلشان خطرك... هاخد يومين إجازة ونطلع يومين العين السخنة أو الجونة، وهعملّك بروجرام ينسيكي كل الزعل، وانشغالي اللي بتتهميني بيه ده.

لميس وهي تشعر بالذنب : أنا آسفة إني اتعصبت عليك... وكنت ظالماك... خلاص اعتبر كل اللي قولته ده محصلش... نفتح صفحة جديدة ومفيش زعل تاني.

كانت تحسب الأيام، بل الساعات للقاء... كانت تراه حلمًا صغيرًا يتنفس في زحمة الواقع.

عطلة قصيرة، يومان فقط، لكنها رتبت لها كأنها العمر كله؛ اشترت ملابس جديدة، رتبت أغاني الطريق، حتى أنها تخيلت ضحكاتهما معًا.

لكن الهاتف بقي صامتًا

رسائلها ظلت تنتظر «تمت القراءة» التي لا تأتي؛ لا تعلم عدد المرات التي اتصلت به في ذلك اليوم... من كثرتها كادت أن تجن.

ذهبت إلى بيته وطرقت الباب عدة مرات ولم يجبها أحد؛ حتى مكتبه ذهبت إليه وسألت، وكان رد السكرتيرة جاهزًا كأنه مُحضّر مسبقًا.

لميس بلهفة : لو سمحت، بشمهندس آدم فين؟ أنا عايزاه ضروري.

السكرتيرة ببرود : لا والله ماعرفش هو فين؛ أقدر أساعدك بحاجة؟

لميس : طيب أنتِ تواصلتِ معاه النهارده؟ أو حد كلمه من المكتب؟

السكرتيرة : مع إنك مش المفروض تسألي، وأنا برضه مش دوري أجاوب عليكِ، بس هو كان عنده ميتينج مهم جدًا من الصبح.

لميس : طيب كلميهولي ضروري.

السكرتيرة وقد بدا عليها الضيق : مقدرش أكلمه، وهو اللي مدي التعليمات دي.

خرجت لميس وهي تحاول أن تلملم ما تبقى من كرامتها المبعثرة، دموعها تنزل في صمت. لماذا يختفي هكذا؟ ماذا فعلت له؟ هل أخطأت في شيء ما معه؟

لم تنم في تلك الليلة من القلق عليه ومن خوفها على نفسها؛ ماذا تفعل من دونه؟ وهو أصبح عالمها... لم تبرح سريرها في اليوم الثاني، وظلّت ترسل إليه رسائل صوتية ترجوه أن يطمئنها عليه.

في اليوم الثالث يرن هاتفها بإشعار رسالة؛ تلتقط الهاتف بسرعة، تتجمد في مكانها وهي تقرأ رسالته : "صباح الخير" تنظر إلى الرسالة... ماذا؟ بعد يومين اختفاء يكتفي بتلك العبارة ؟

تحاول الاتصال به فتجد تليفونه غير متاح... تقذف التليفون بعنف في الأرض وهي تصرخ من الغضب.

في المساء يرن جرس الباب، تنهض بثقل، تفتح الباب لتجد عامل التوصيل معه باقة كبيرة من الورد الأبيض كما تحب، وكارت مكتوب به كلمة واحدة : سامحيني... آدم

كانت قد قررت أن تغلق باب الانتظار وتطفئ قلبها كما أطفأ تليفونه؛ وقفت تحدق في الزهور، لا لأنها جميلة، بل لأنها بدت كصفعة ملفوفة بورق سوليفان.

جاءتها رسالة أن تليفونه فتح أخيرًا؛ ظلّت تتصل وتتصل، ولا يجيب...

تحدث نفسها : ليه بيعمل كده؟ طب بعتلي الورد ليه وهو مش هيرد عليّ؟ أكيد في حاجة أنا مش فاهمّاها.

فـي وقـت متـأخر مـن الليـل، لـم تكـن تشـعر أنهـا نامـت أو أُغلقـت عيناهـا مـن كثـرة البكاء؛ تجد رقمه على الشاشة. ترد وهي تبكي :

– أنـت فـين؟ حـرام عليـك اللـي أنـت عملتـه فيّـا! كنـت فـين؟ مـا بتـردش علـى مكـالمتي ليه؟

يصمت لثوانٍ، ثم يخرج صوته هادئًا كعادته :

– غصـب عنـي يـا لمـيس، أنـتِ مـا تعـرفيش اللـي كنـت فيـه اليـومين اللـي فـاتوا دول؛ هنتقابل بكرة في الكافيه بتاعنا وأحكي لك على...

لمـيس مقاطعـة : يـاه! بجـد؟ بـس كـده؟ سـيبني ثلاثـة أيـام، وبعـدين تقـولي مـا تعـرفيش عندي إيه؟

آدم : قلت لك بكرة هحكي لِك على كل حاجة؛ خلينا نتقابل هناك الساعة ١٢.

لمـيس : ومـين قالـك إنـي عـايزة أشـوفك أصـلًا؟ ولا فـارق لـي أعـرف إيـه اللـي جـرى لك.

آدم : براحتِك... عايزة تيجي أو متجيش... ده قرارِك.

لم تكن تعلم أنها ضعيفة وهشة إلى هذا الحد.

تقود سيارتها إلى الكافيه. تأخرت نصف ساعة، ولكنها في النهاية ذهبت.

دخلت وهي تتجه إلى المكان الذي يجلسون فيه دائمًا؛ ترتدي نظارة كبيرة زجاجها غامق، كأنها لا تريد رؤية العالم من خلفها؛ دخلت في هدوء وسحبت المقعد؛ رفع نظره وهو يبتسم :

– اتأخرتِ... بس كنت عارف إنك هتيجي.

لميس : وإيه اللي خلاك تستناني؟

آدم : مش يمكن وحشتيني؟ وكان نفسي أشوفِك.

لميس (صوتها يرتعش، لكنها تحاول الثبات) : أنا مش قادرة أصدق إنك قادر تعمل فيّا كده؛ تكسرني... وقاعد هادي ولا كأن حاجة حصلت.

آدم : طيب ممكن تهدي وتسمعيني؟ ومتقاطعيش وأنا هشرح لك كل حاجة.

آدم : وأنتِ لابسة النظارة ليه؟ مفيش شمس... شكلك عجيب أوي.

لميس : معلش... بس لو قلعتها شكلي هيبقى أعجب.

تخلع النظارة ليجد عينيها منتفختين من البكاء، لا يكاد يميزها من شدة إحمرارها...

آدم : إيه ده؟ شكلك ما نمتيش من امبارح.

لميس تبتسم بسخرية : لا... ما نمّتش من تلات أيام. فاكر؟ ولا أنت بتنسى بسرعة؟

آدم وهو يتنهد بافتعال :

– أنا تعبت أوي يوم السفر... ومراد صاحبي هو اللي ودايني المستشفى، ومكنتش عارف أعمل إيه ولا عارف أوصلك، كنت في دنيا تانية.

لميس تنهض منصرفة... يمسك آدم يدها وهو يترجاها أن تجلس.

تجلس وهي تقول : أنت مش قلت اللي عندك وسبب إنك اختفيت كالعادة؟ أنا بقى المرة دي مش مصدقة حاجة.

آدم، دون أن يكلمها، يمسك هاتفه ويتصل بمروان...

يأتي صوت مروان :

– ألو، إزيك يا آدم؟ عامل إيه دلوقتي؟

آدم : أهو ماشية، بس نزلت شوية الصبح... كان عندي شغل، حسيت إني تعبت تاني.

مروان : أنت برضه نزلت؟ ده أنت كده بتستعبط بقى! الدكتور قالك لازم تريح أسبوع!

يا ابني ده كان ضغطك عالي جدًا.

آدم : لا مـا تقلقـش... ده ميتيـنج خفيـف، بـس كـان لازم أنزلـه بنفسـي؛ معلـش تعبتـك معايا اليومين اللي فاتوا دول.

مروان : يا عم إيه الهبل ده؟ كلمني لو احتجت حاجة! سلام.

تنظـر لمـيس إليـه فـي ريبـة وخجـل وتأنيـب ضـمير فـي الوقـت نفسـه؛ هـل ظلمتـه؟ هـل كان فعلًا مريضًا؟

تـدور كـل الأسـئلة فـي رأسـها؛ تريـد أن تثـأر لكرامتهـا... وتريـد أن تأخـذه فـي حضـنها وتعتذر له؛ في النهاية تجد نفسها تحتضنه بعينيها وتقول :

– أنـا آسـفة إنـي ظلمتـك وشـكّيت فيـك بـس أنـا كنـت هتجـنن مـن القلـق عليـك؛ والله مـا كان فارق معايا السفر ولا أي حاجة... أنا كل اللي فارق معايا... أنت؛

– أوعـدني، مهمـا حصـل مـا تعملـش كـده تـاني، ومـا تختفـيش، ومـا تـردش علـيّ زي مـا عملت... فاهم؟

– آه، وبعـدين إيـه موضـوع إن ضـغطك كـان عـالي ده؟ إزاي؟ أنـت عمـرك مـا قلـت لي حاجة...

يقاطعهـا آدم وهـو يقبّـل يـدها ويقـول : مـا قلتلـيش... إيـه رأيـك فـي الـورد؟ أنـا عـارف إنك بتحبي الورد الأبيض.

تمر الأيام، لا يهمها فيها شيء غير وجود آدم؛ تسأل عن والدتها بين الحين والآخر بمكالمة باهتة، وتهرب من الذهاب إليها خوفًا من تفويت رؤية آدم إذا سمح وقته، كل ما تريده أن تلتقيه وتتكلم معه.

لم تسأله يومًا عن مستقبلهما، كانت ترضى بوجوده معها فقط، أصبح هو الأهم... والأقرب إليها؛ استحوذ عليها، وأصبحت لا تخطو خطوة إلا برأيه، أقنعها أنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من دونه... وأنها قليلة الخبرة، ومن الممكن أن تُستغل بسهولة... فهي قليلة الخبرة.

في صباح يوم عادي، كانوا اتفقوا أن يتقابلوا في مكانهم، كان من الواضح على لميس أنها متحمسة وسعيدة؛ تمسك بيد آدم وتقول : عندي ليك مفاجأة متأكدة أنها هتعجبك.

آدم : طيب قولي اللي عندك.

لميس : رامي أخويا جاي من كندا بكرة، نازل إجازة صغيرة كده، وقالي إنه عايز يشوفك، أنت عارف علاقتي برامي قوية إزاي، وأنا حكيالـه من أول ما اتعرفنا، وفرصة إنك وماما تتقابلوا.

إيه رأيك بقى؟

آدم وهو ينظر في تليفونه : تمام، ماشي، هشوف وقتي الأسبوع ده، بس إيه بقى المفاجأة والحماس ده كله إن أخوكِ جاي من السفر وعايز يشوفني؟

لميس في حرج : لا، أنا قلت إني على طول بحكيلك عن رامي، وهتبقى أنت كمان عايز تشوفه.

آدم : طيب يا حبيبتي، مفيش مشكلة، معلش بس أنا دماغي مشغولة النهاردة، هروح المكتب أخلص شوية شغل ونتكلم بالليل.

قبل يدها وهمس لها في أذنها : شكلك زي القمر النهاردة

شعرت بدفء أنفاسه وهو يهمس، شعرت بكهرباء تسري في جسدها، أخذتها تلك الهمسة إلى عالم آخر.

مساء يوم الجمعة؛ البيت مرتب بعناية، والدتها أعدت أشهى الأصناف للعشاء، رامي متشوق للقاء آدم، لميس تجلس متوترة، تُرتب شعرها كل خمس دقائق، فهي صففته ناعمًا كما يحب، تفتح هاتفها باستمرار؛ الساعة تشير إلى التاسعة، كان من المفترض أن يأتي آدم في السابعة والنصف!

كالعادة لا يُجيب، يكاد قلبها يقف حزنًا؛ يصدر صوت رسالة من تليفون لميس، رسالة من آدم...

لميس (تقرأ بصوت مرتعش) :

– لميس، آسف مش هقدر أجي، حسيت إن الوضع مش مناسب ليا، إحساس إني رايح مكان علشان حد يقيمني وهم ما يعرفونيش، إحساس صعب، وأنا أكبر من إني أكون مادة للحكم.

(تصمت، تتجمد ملامحها، قرأت الرسالة أكثر من مرة، لم يكن هناك اعتذار حقيقي، ولا إحساس بالذنب)

أغلقت الهاتف ببطء، تنظر لأمها التي بادلتها النظرة بصمت، ولأخيها الذي شعر بأن هناك شيء ليس على ما يرام، وسألها : هو مش جاي؟

هزت رأسها في صمت وهي تتحاشى النظر إلى عينيه، خوفًا من أن يقرأ ما فيها، وقالت : آه، مش هيعرف يجي، حصلت عنده مشكلة في الشغل.

وانسحبت ودخلت إلى غرفتها، خوفًا من مواجهتهم.

أغلقت الباب خلفها، وأسندت ظهرها إليه، تسقط ببطء حتى جلست على الأرض، شعرت أن شيئًا ما انكسر بداخلها؛ هل هو صوت قلبها المحطم؟ أم صدى الخيبة حين لا يأتي من وعد؟

مـدت يـدها المرتجفـة نحـو الهـاتف، فتحـت الرسـالة مـرة أخـرى، قلبهـا كـان لا يـزال يُقـاوم، يبـرر، يأمـل أن هنـاك خطـأ مـا، أي شـيء إلا أن يكـون قـد اختـار خـذلانها بهـذه البساطة...

كتبـت : آدم، مـش قـادرة أفهـم، انـت بتعمـل كـده ليـه؟ أنـا كنـت فرحانـة ومسـتنية اليـوم ده، ليه عملت فيا كده؟

حذفت الرسالة... ثم كتبت مرة أخرى :

– أنـا كنـت عـايزاك تتعـرف علـى ماما وأخويـا مـش أكتـر، تعـرف عيلتـي مـن قريـب، زي ما هما كمان كانوا عايزين يعرفوك، مش يحكموا عليك

حذفتها أيضًا...

أنزلـت الهـاتف بجانبهـا، وأسـندت رأسـها علـى ركبتيهـا شـعرت بالوحـدة رغـم أصـوات عائلتهـا فـي الخـارج، شـعرت بأنهـا مكشـوفة، كأنهـا فتحـت بـاب قلبهـا وتركتـه مفتوحًـا، ولم يدخل منه إلا ريح باردة؛ حاولت الاتصال به، لا يزال الهاتف مغلقًا.

تنهـدت، هـذه المـرة لـم تبـكِ، بـل نظـرت إلـى الأرض بعينـين جـافتين، كمـا لـو أن الـدموع خـذلتها كمـا خـذلها هـو؛ فـي تلـك اللحظـة، أدركـت أن أصـعب شـعور لـيس الفقـد، بـل أن تشك في نفسك لأن أحدهم لم يرَ قيمتك.

مـرت أيـام لـم تحسـبها لمـيس، بـل شـعرت أن الأيـام تمـر مـن خلالهـا، ودعـت أخاهـا وهـو مغـادر، لـم تـرد أن تـذهب لمنزلهـا، فضـلت أن تبقـى مـع والـدتها حتـى لا تشـعر بالوحدة أكثر.

بعـد يـومين تقريبًـا، رن هاتفهـا، كـان اسـمه يظهـر علـى الشاشـة... انقـبض قلبهـا، ولكـن إصبعها كان أسرع من عقلها، وضغطت " **رفض** "

بعد دقيقة وصلت رسالة :

– أنـا عـارف إنـي غلطـت، بـس مـا كنـتش مسـتعد أشـوف نفسـي بعـين حـد تـاني غيـرك؛ خوفت... مش منكم، من نفسي... خوفت تبصيلي بعين أهلك مش بعينك.

ثم تبعتها رسالة أخرى :

– كل اللي عملتيه عشاني، شُفته وحسيته... بس أنا كنت جبان

تجاهلت الرسائل؛ بعد ساعتين تقريبًا، طَرق باب منزلهم.

فتحت أمها، فوجئت به واقفًا يحمل باقة ورد وكلمات متعثرة.

مسـاء الخيـر... أنـا أدم أكيـد حضـرتك عرفـاني؛ ممكـن أكلـم لمـيس؟ ولـو هـي قـالتلي أمشي همشي ومش هزعجها تاني.

تـرددت الأم، لكنهـا أشـارت لـه بالـدخول، وعلـى وجههـا علامـات الـذهول والامتعـاض في نفس الوقت.

دخل بخطوات ثقيلة، وكأنه يعبر أرضًا مليئة بالألغام؛ كانت لميس تجلس في الصالة، وجهها شاحب وشعرها مبعثر، عيناها متورمتان من السهر، لكن وقفتها ثابتة.

قال بهدوء :

– أنا آسف، مش علشان مرضتش أجي، أنا آسف علشان أنا طول الوقت بفكر في نفسي بس حتى لما بحب، بحب بطريقتي اللي بتوجع غيري.

نظرت إليه ولم تتكلم.

اقترب خطوة منها وقال:

– أنا عايز فرصة تانية... مش علشان أريح ضميري، علشان أثبتلك إني أقدر أحبك من غير ما أهرب، من غير ما أخاف، من غير ما أفضل نفسي عليكي.

صمتت لوهلة، نظرت إليه طويلًا كأنها تبحث عن صدقٍ في وجهه؛ ثم قالت بصوت منخفض : أنا تعبت يا أدم... وأنا مش لعبة.

اقترب أكثر، وقال بهمْس نادم : أنا اللي كنت لعبة في إيدي خوفي وغروري. خلوني كده، بس كفاية أنا المرة دي هكون راجل قد حُبك.

دموعها انزلقت من عينها دون أن تشعر؛ لم ترد، لم تعانقه، لم تسامحه بالكامل، لكنها لم تطرده أيضًا.

جلست على الأريكة، وهو جالس أمامها بصمت؛ بعد دقائق من السكوت قالت : لو هترجع لازم تبقى شخص تاني، ماينفعش ترجع بنفسك القديمة.

قال : أنا أصلًا اتغيرت من وقت ما لقيتك مبترديش عليّا ولا بتحاولي تفهمي سبب اللي عملته؛ حسيت إني ضيّعت أحلى حاجة حصلتلي في حياتي.

في تلك الليلة، لم يتعانقا، لم يعلنا العودة، لكن ما حدث كان أعمق من الكلام؛ كان استسلامًا بطيئًا صامتًا، لكنه كان حقيقيًا، أو على الأقل من ناحيتها.

عِشت معه أجمل فترة منذ عرفته، كان حنونًا يتعامل بصدق لأول مرة في حياته. نبرة صوته لم تصبح متعجرفة، أصبح يسمعني أكثر باهتمام، توقف عن سرد مغامراته مع السابقات، وإشعال الغيرة بي؛ كنت أقول بداخلي : لقد تغير فعلًا، هذا ليس أدم.

ظل هكذا فترة لا بأس بها، فترة كافية أن تسكن جروحي السابقة، وتعيدني من حالتي المتماسكة إلى حالتي الهائمة.

حتى أنا تغيرت، لم أعد متاحة كالسابق؛ بدأت أهتم بعملي مرة أخرى، واشتركت في نادٍ رياضي قريب من بيتي... أقابله ولكن حين أستطيع، وليس حين يرغب هو فقط؛ كنت أرى في عينه نظرة خذلان لا أفهمها... رجل فقد الشغف ولكنه لا يزال محبًا؛ كانت تُعذبني تلك النظرة، حتى أن ضميري أصبح يؤنبني نوعًا ما.

أستيقظ كل يوم على رسائله الصباحية الرقيقة؛ عندما نجتمع مع أصدقائه يمدحني أمامهم كثيرًا؛ حتى أنه يريهم لوحاتي السابقة بعدما كان يتجاهل وجودي أمام أي أحد؛ يدعمني، يسمعني، ولا ينتقدني أبدًا؛ أصبح شريكًا مثاليًا وما أن ارتحت له، ورجعت كسابق عهدي معه، صدقته ونويت أن أعطيه فرصة حقيقية؛ حتى عاد هو الآخر كما كان... يتجاهل رسائلي، يسخر من آرائي، يلومني على كل صغيرة وكبيرة.

لميس متذكرة حوار دار بينهم : عارف يا أدم أنا نفسي يبقى عندي بيبي بس منك أنت، ويبقى شبهك؛ ساعات بتخيلك وأنت شايله وواخد نفس عينيك وشعرك.

يضحك أدم ويرد ساخرًا : يعني اتجوزنا وخلفنا وكمان البيبي طلع ولد وشبهي! بصراحة أنا عمري ما تخيلت إن ممكن يكون عندي ابن أو بنت أصلًا؛ فكرة المسئولية دي بصراحة بتقلقني... علشان كده أنا أصلًا متجوزتش وأديكي أهو... لما اتجوزتِ فشلتِ، ومكملتيش سنة وأمك وأخوكِ مكانوش راضيين بفكرة الطلاق، وخايفين عليكِ من كلام الناس؛ بصراحة مامتك دي غريبة!

لميس : يا ابني هو أي انتقاد وخلاص؟ أنت متعرفش ماما أصلًا طيبة جدًا، وزيها زي أي أم في الدنيا... خايفة عليّا من فكرة الطلاق في حد ذاتها.

أدم : خايفة عليكِ من إيه؟ هو أنت صغيرة ومتعرفيش تاخدي قراراتك لوحدك! أنت كنتِ قيلالي إن خالتك هي اللي كانت جايبالِك العريس صح؟

لميس : أيوه هي... وبعدين خلاص يا ريت نقفل السيرة دي... أنا آسفة، مش عايزة بيبي لا شبهي ولا شبهك ولا شبه خالتي حتى... تمام كده.

هو لم يكن قاسيًا، هي التي كانت غبية...

رن هاتفها صباحًا برقم أدم ردت بصوت مختنق وهي تبكي : أدم... لسه ماما مبلغاني خبر وحش قوي.

أدم بضيق : خير... خبر إيه اللي على الصبح ده؟

لميس : خالتو أمينة جالها كانسر، كانت تعبانة من فترة ولسه التحاليل باينة امبارح بالليل.

أدم : علشان كده مردتيش عليّ في أول مرتين كلمتك؟

لميس : هو إيه الرد ده؟ توقعت إنك تقولي متخافيش، ألف سلامة... أي حاجة من اللي بتتقال في المواقف دي.

أدم وهو غاضب : وطبعًا هتروحي تزوريها؟ هتروحي تواسي أكتر واحدة أذتك في حياتك، لما جبتلك العريس المدمن بتاعها اللي بهدلك وخلاكي تلفي حوالين نفسك... ولا نسيتِ؟

لميس بضيق : أدم لو سمحت... أنا مش قادرة أدخل في مناقشة من بتوعك دلوقتي؛ أنا بكلمك وأنا بلبس ورايحة أخد ماما ونروح لخالتو.

أدم : يعني بردو هتروحي، ولا كأني قلت حاجة؟ أنا فين من حياتك؟ شوية ماما وشوية خالتك وشوية اكتئابك وشغلك وأنا ماليش لازمة.

لميس منفعلة : هو فين اللي أنت بتقوله ده؟ أمي اللي بقالي أكتر من شهر مروحتش زورتها، وشغلي اللي تقريبًا وقف من يوم معرفتك، واكتئابي ده جالي منين؟

أدم : شغلك واقف بسببي أنا، ولا أنتِ اللي معندكيش حاجة تعمليها أصلًا؟ وكل لوحك شبه بعض لما محدش بقى يبصلها، وأمك اللي مش فضيالك أصلًا؛ افتكري إن أنا اللي جنبك على طول، مش حد تاني.

لميس : مع السلامة يا أدم.

أغلقت الهاتف في وجهه وأغلقت التليفون، حتى لا تجيب عليه مرة أخرى. كانت قد اكتفت من كلامه وعاهدت نفسها في تلك اللحظة أن لا تكسر قلبها أكثر من ذلك...

كان أدم يتصل بها كثيرًا ولا تجيب. في كل مرة ترى رقمه تشعر أن جرحها يلتئم من جديد؛ تسمع رسائله الصوتية ولا تجد إلا نبرة متعجرفة، أمرة بأن تعود إلى رشدها، وإلا سيختفي إلى الأبد؛ تضحك وهي تسمع رسائله في استمتاع.

(بعد مرور شهرين)

وجد أدم على مكتبة باقة زهور أنيقة، فتح الكارت : مستنياك يوم السبت في معرضي " لميس "

ضحك بانتصار... لم يفرح بعودتها، بل فرح أنها خضعت في النهاية.

في المعرض، تدخل لميس بفستان منقوش بألوان متعددة كما كانت تحب أن ترتدي دائمًا، بلا أكمام، يكشف عن جانب من شخصيتها دون أن تتكلم؛ القطع المعدنية التي ترتديها تعكس إضاءة المعرض، كأنها تفاصيل مدروسة بدقة، تمامًا كلوحاتها المعلقة على الجدران؛ مكياجها بسيط، ولكن أحمر شفاها الداكن يبرز ملامحها القوية؛ شعرها مموج غير مرتب، لكنك تدرك فورًا أن الفوضى تلك مقصودة.

كان المعرض مزدحمًا بالناس، لا باللوحات... كانت لوحة واحدة كبيرة بإطار أسود قاتم تجمع عندها جميع الموجودين، في حين دخول أدم وهو ملئ بالزهو ويمشي مشيته الواثقة.

ما إن وجدها حتى ابتسم لها مرحبًا وقالت : كنت هزعل أوي لو مجتش، المعرض ده معمول على شرفك!

أدم : للدرجة دي حسيتِ بغلطك؟ عمومًا، بردو حتى لو المعرض على شرفي، أنا لسه مسمحتكيش؛ أديني وقتي... مش زرار هدوس عليه فهنسي كل حاجة.

لميس : بموت في ثقتك دي... تعال بس شوف اللوحة وأديني انطباعك الفني؛ أنت آخر مرة إن شغلي بقى كله مكرر ومفيش حاجة أقدمها، أنا أهو حاولت أعمل حاجة جديدة.

اقترب من اللوحة ووجد نظرات الناس من حوله غريبة، وخصوصًا الذين يعرفون بعلاقته مع لميس؛ اقترب من اللوحة وهو على وجهه نفس ابتسامته العريضة المصطنعة.

(في مركز اللوحة، يظهر رجل بملامح جذابة ظاهريًا، ويشبه أدم نوعًا ما، لكن كل تفاصيله توحي أن هناك شيئًا خاطئًا... مشوهًا؛

وجه الرجل مغطي بنصف قناع ذهبي لامع؛ القناع يمثل الذي يظهر أمام الناس : واثق، ساحر، مثالي، مُحب؛

النصف الآخر من الوجه عارٍ، لكنه مشوّه، تظهر عليه شقوق عميقة، الجلد يكاد يكشف ما يخفيه تحته؛ هذا النصف يُظهر حقيقته : بارد، مريض بالغرور، فارغ من الداخل؛

عين القناع زجاجية، بلا حياة، لا ترى شيئًا... العين الحقيقية مُتعبة، سوداء ذات بؤبؤ صغير، نظراتها غير مريحة، كأنها تبتلع كل من ينظر إليها؛

الفم مرسوم على شكل ابتسامة واسعة جدًا، لكنها مشدودة بالخيوط، لتخبر كل من يراها أنها ليست ابتسامة حقيقية ويخرج من فمه ألسنة دخان أسود؛

في كلتا اليدين مرآتان، كل واحدة يرى فيها جانبًا... جانب يظهر وجهه المثالي، والجانب الآخر يظهر صورة شيطانية، وجه مشوه بابتسامة ساخرة؛

في الخلفية وجوه لنساء متعددة... كلها باهتة، ذائبة، بدون ملامح واضحة؛ لوحة سوداء قاتمة، الضوء الوحيد يأتي من شق القناع، كأنه يُفضح رغماً عنه)

(عنوان اللوحة : رجل من زجاج)

هكذا كانت تراه؛ بدأ الناس يلتفتون... ثم ينظرون إليه... ثم إلى اللوحة... ثم إليه من جديد.

تبددت الابتسامة ونظرة الثقة التي على وجهه، لم يعد يستطيع الابتسام، كأن جلده أصبح شفافًا، وكأن اللوحة تريد أن تسحبه ليقف بجانبها عاريًا من أي تمثيل؛ كل خط في اللوحة يعرفه؛ كل تشقق، كل ظل، كل شيء كان انعكاسًا له... كالعادة، اللوحة لم تنطق، ولكنها صرخت بما حاول إخفاءه عمرًا.

أدار وجهه بهدوء... خرج بدون كلمة، لكن عينيه لم تعد كما كانت؛ بهما ارتباك، صدمة، هزيمة لم يعترف بها، لكنه شعر بها حتى العظم؛ أنسحب كظل فقد ضوءه... لا أحد من الحضور ودعه، لكن الجميع فهم.

عـادت لمـيس أقـوى مـن كـل وجـع عرفتـه يومًـا؛ هـو ذاك الـذي كـان يظـن أنـه الشـمس التي لا تغيب، لم يكن إلا ظلًا باهتًا لرجل مكسور خلف قناع النرجسية.

ابتسـمت وهـي تُغلـق بابًـا كـان يومًـا مـأوى لـوهم قاتـل، وقالـت فـي نفسـها : " **كـان نرجسي وكنت قوية** ".

***